كتاب الهلال

المسلمون والإسلام

للأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده

تقديم وتحقيق
طاهر الطناحي

سلسلة ثقافية شهرية

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصـــدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العدد ١٥٣ ـ رجب ١٣٨٣ ـ ديسمبر ١٩٦٣

No. 153 — December 1963

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

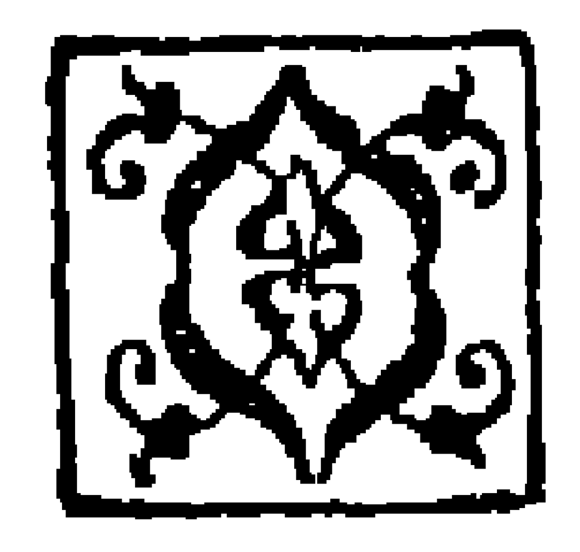
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ في الســـودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشـــا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربي جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحـرين ٤٠ آنه ، ليبيا : بنغازى وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجـزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ن

كتاب الهلال



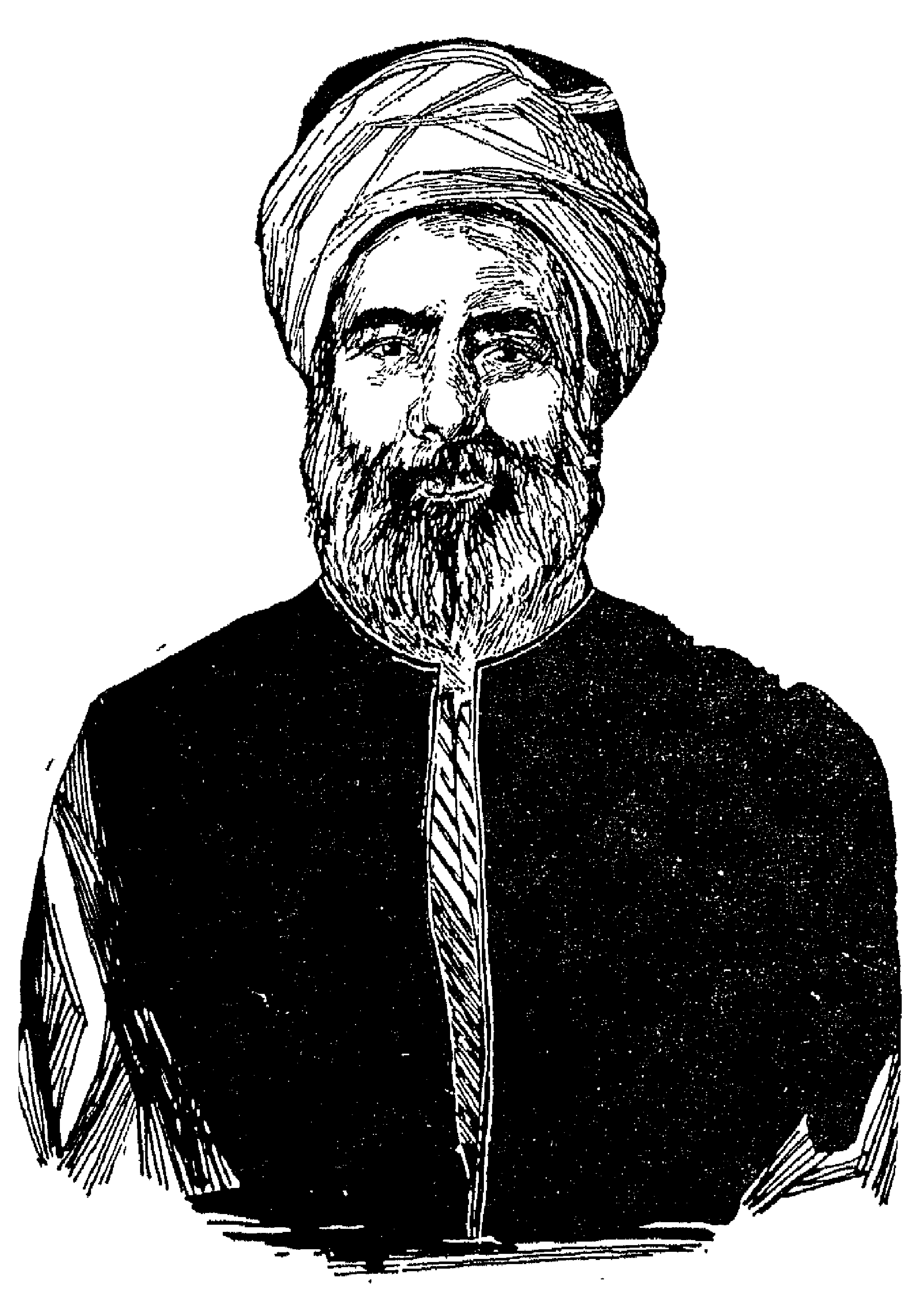
سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

المسلمون والإسلام

للأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده

تقديم وتحقيق وتعليق
طاهر الطناحي

دار الهلال



الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده

محمد عبده
فى حياته العلمية

بقلم : طاهر الطناحى

هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم للقراء هو كتابنا الخامس من تراث الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، الذى عنينا بأن يظهر فى ثوب جديد يلائم عصرنا الحديث . فأخذنا نعرض حياة الامام ، وآراءه ، وآثاره فى عدد من الكتب تظهر بين حين وآخر بتحقيق دقيق ، وتعليق لما يحتاج الى تعليق ، وتفسير للاحداث التى عاصرت آراءه وأقواله ، وتبيين للاطوار التي صاحبت حياته الدينية والسياسية والاجتماعية ، وتعريف بالاشخاص الذين عرفوه ، وكان لهم صلة به ، وتوضيح للمؤثرات التى ابرزت هذه الآراء والافكار بصورتها الحية ، التى تمتاز بحرية الرأى ، واستقلال الفكر ، وتهدف الى الاصلاح الدينى والاجتماعى والاصلاح السياسى العام

وقد أصدرنا قبل كتاب « المسلمون والاسلام » من هذا التراث المجيد أربعة كتب ، هى بترتيب الصدور :

١ ــ « دروس من القرآن الكريم » يشتمل على تفسير سورتى : « الفاتحة » و « العصر » وتفسير خمس آيات من القرآن تفسيرا وافيا جديدا يتضمن عدة مسائل

منها : مسألة الغرانيق ، ومسألة زينب بنت جحش ابنة عمة النبى (ص) وزيد بن حارثة مولاه

٢ ــ « الاسلام دين العلم والمدنية » . وهو ماسمى من قبل : « الاسلام والنصرانية » ولكننا زدنا عليه عدة فصول بقلم الامام مما يدخل في موضوعه

٣ ــ «مذكرات الامام محمد عبده » . ويضم بين دفتيه عشرة فصول ، تترجم له من ولادته الى دخوله السجن بعد فشل الثورة العرابية . وهى أول مذكرات تنشر له كاملة حتى الآن

٤ ــ « رسالة التوحيد » وقد طبعت قبل نشرنا لها بأكثر من خمسين عاما وأضيف اليها ماليس منها . ولكننا قدمناها لقرائنا فى فبراير سنة ١٩٦٣ م فى عرض علمى جديد ، وبتحقيق دقيق . وبدأناها كعادتنا فى هذه الكتب بمقدمة أوضحنا فيها السبب الذى دعا الى تأليفها والظروف التى احاطت بهذا التأليف . وقد كانت الرسالة الثانية فى التوحيد بعد « رسالة الواردات فى سر التجليات » التى الفها فى شبابه !

ولست ازعم ان ما اقدمه من تراثه ، واجلوه من فضله ، عمل انفردت به فى بابه ، وان كنت نحوت فيه نحوا جديدا فى طريقته وأسلوبه . فان الذين سبقونى الى التأليف فى حياة الامام ، ونشر آثاره قدموا الى العربية جهودا قيمة ، وقاموا بخدمات ثقافية جليلة الى النهضة الاسلامية ونهضة الاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى التى تزعمها الاستاذ محمد عبده بعد استاذه السيد جمال الدين الافغانى . ولكننى وجدت من واجبي نحو رجل عظيم من ائمة الدين وزعماء الوطنية والاصلاح أن أسهم بمجهودي فى خدمة هذه النهضة وخدمة الجيل الحاضر باعتبارى كاتبا مسلما من امة مجيدة يفرض عليها دينها ومجدها أن

تعنى برجالها العظماء ، وما خلفوا من تراث نفيس

ولا ريب أن عظمة محمد عبده تستحق العناية والتكريم وهى عظمة خيرة واسعة الافق ، متعددة النواحى ، غنية بالمثل العليا ، متحركة لم تكن تعرف الجمود والسكون ، ولا تستكين الى الراحة والقرار ، ولم تكن تعمل فى ميدان واحد ، بل كانت قوية نشيطة منذ بزغ نورها فى شبابه ، فبث روح الحرية والاصلاح الحكومى والقومى بما كان يدبجه من مقالات وفصول فى جريدة الوقائع الرسمية ، على الرغم من انها كانت حكومية ، وبعث فى نفوس الشباب العربى الحماسة الوطنية ، والشخصية القومية ، وحب الحرية والاستقلال ، مما كان أثره واضحا فى اشتعال الثورة العرابية التى كان من كبار زعمائها وكتابها وخطبائها البارزين الذين سجنوا وحكم عليهم بالنفى من البلاد

ولم يكن هذا الحكم الذى احتمل متاعبه مدة من الزمان ، بصارف له عن مبادئه فى خدمة الوطن وخدمة الاسلام والمسلمين ، والسعى فى اصلاح أحوال الاقطار الاسلامية فقد انضم بعد خروجه من مصر الى استاذه جمال الدين الافغانى ، وجاهد ما استطاع فى محاربة الاستبداد وتهذيب الاخلاق ، ومحاربة الخرافة والجمود ، وعمل لاصلاح التعليم الدينى وادخال الاساليب الحديثة فى المعاهد الدينية والمدنية

وقد نادى بحرية الفكر واحترام الراى ، والبعد عن التعصب ، ودعا الى الوحدة الاسلامية ، واعتبر الدين اهم وسيلة للاصلاح ، وكافح فى سبيل مبادئه طويلا ، حتى ظن الكثيرون بعد وفاته انه عاش حياة طويلة لما وسعت من جهود باهرة ، واعمال ضخمة ، مع انه لم يعش أكثر من ستة وخمسين عاما بالتاريخ الميلادى ، وثمانية وخمسين عاما بالتاريخ الهجرى . صرفها منذ كان طالبا وشابا يافعا

فى خدمة الاسلام واصلاح حال المسلمين الى أن توفى فى شهر يوليو سنة ١٩٠٥ م

الدور الاول : من حياته القلمية

ولقد ظهرت ملكته الكتابية منذ فجر شبابه فكتب فصولا نفيسة وبحوثا قيمة ، قبل أن ينفى من مصر ، فى الجرائد العربية تناول فيها كثيرا من الموضوعات الدينية، والاجتماعية والفلسفية . وكان اول مقال كتبه وهو طالب فى تقريظ جريدة الاهرام ، وكانت وقتئذ اسبوعية . وقد نشر هذا التقريظ فى العدد الخامس منها الذى صدر فى ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ الموافق ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦ م بهذه الديباجة :

« وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة والاديب الفهامة الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالازهر، وقد ادرجناها بحروفها »

وكان عمره وقتئذ سبعة وعشرين عاما . ثم تابع نشر رسائله التى بلغت خمسا فى هذه الجريدة الى العدد ٤١ فى ذى الحجة ١٢٩٤ هـ . وهى السنة التى نال فيها شهادة العالمية من الازهر الشريف . وقد كانت كل رسالة من هذه الرسائل بعد الرسالة الاولى تنشر بهذه الديباجة :

« وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العلامة الاديب الفاضل الاريب الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالازهر »

وتعتبر هذه الرسائل اولى منشآته فى صدر شبابه ، وكان يغلب عليها فى ذلك الحين الاسلوب المسجع ، والتفكير الفلسفى الذى تأثر فيه بمدرسة السيد جمال الدين الافغانى ، حتى كان فى بعض مقالاته يلخص دروس استاذه وينشرها فى « جريدة مصر » . وهى جريدة اسلامية كانت

وقتئذ لسان حال السيد جمال الدين وتلاميذه ومريديه

وهذه الجريدة وجريدة الاهرام هما اللتان نشر فيهما أولى مقالاته فى الدور الاول من شبابه ، دور طلب العلم بالازهر وتلمذته على جمال الدين

وقد كانت هذه المقالات ، وما عرف عنه من النبوغ وسعة العلم حين كان يدرس فى الازهر الشريف للطلبة طائفة من كتب الفلسفة والادب والعلوم الدينية ، من اهم مارشحه للتدريس فى المدارس العليا ، فعين مدرسا للتاريخ فى «دار العلوم» ومدرسا للغة العربية وآدابها فى مدرسة الالسن ، فى أواخر سنة ١٢٩٥هـ الموافقة سنة ١٨٧٨م . وقد تولى التدريس فى هاتين المدرستين مع الاستمرار فى التدريس فى الجامع الازهر، وقد درس لطلبة دار العلوم « مقدمة ابن خلدون » وكان فى اثناء تدريسه لابوابها وفصولها العمرانية ، يبث أفكاره السياسية والاجتماعية فى أذهان تلاميذه ، ويدلهم على أسباب الضعف التى تصيب الامم بالسقوط ، وأسباب القوة التى تنهض بالدول وتؤدى الى الرقى والنجاح !

وقد بث فى تلامذة مدرسة الالسن حب لغتنا العربية، وزادهم اعجابا بأدبها وبلاغتها ، ودفعهم الى العمل لاحياء تراثها المجيد . وكان لهذه الروح التى أيقظها فى نفوس الشباب ما جعلهم يؤمنون بوجوب الاصلاح ، ويشعرون بأن عليهم واجبا مقدسا باصلاح ما أفسده الخديو اسماعيل والخديو توفيق من شئون مصر المالية والسياسية والادبية . وقد تخرج عليه طائفة من زعماء مصر وعلمائها وادبائها الذين قاموا بخدمة بلادهم واصلاح احوالها فيما عهد اليهم من مناصب واعمال ، نذكر منهم سعد زغلول ، وابراهيم اللقانى ، ومحمد صالح ، والشيخ على يوسف ، واحمد لطفى السيد ، ومصطفى عبدالرازق، وحفنى ناصف

الدور الثانى : فى الوقائع المصرية

وقد كانت هذه الجهود الاولى التى بذلها محمد عبده فى صدر حياته مما لفت اليه أنظار رئيس الوزارة فى ذلك الحين مصطفى رياض باشا ، وكانت جريدة الوقائع المصرية فى حاجة الى الاصلاح والتحسين بعدما انتقل تحريرها من اللغة التركية الى العربية ، فأحب أن يعين فيها كاتبا قديرا يستطيع ان ينهض بها ، ويحقق لها ما يريده من رقى ، فأشار عليه الوزير الشاعر الفارس محمود سامى البارودى بأن يعين فيها الشيخ محمد عبده ، ففى اواسط سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩ م) عينه محررا ثالثا بها . ثم عينه محررا اول ورئيسا لتحريرها ، فأختار لمساعدته فى التحرير الشيخ سعد زغلول (سعد زغلول باشا) . والشيخ ابراهيم الهلباوى (المحامى الشهير فيما بعد) والشيخ سيد وفا .. وهم من الذين عرفوا بجودة الكتابة وبراعة التحرير فى ذلك الزمان

وقد مكث رئيسا لتحرير هذه الجريدة يكتب فيها بحوثه السياسية والوطنية والاجتماعية حتى فشلت الثورة العرابية وقبض عليه . وسجن ، وحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات خارج البلاد المصرية

وقد عنى اثناء رياسته لجريدة الوقائع المصرية باصلاح تحريرها ، وتوجيه الخدمة للشعب على الرغم من انها جريدة حكومية . وكان يتناول فيها الموضوعات الكبرى سواء كانت مالية ام سياسية ام وطنية ، مما لا يجيده غيره فى الصحافة المصرية فى ذلك الحين . وحدث ان بعث رياض باشا الى قلم المطبوعات يطلب نشر مقال فى الوقائع المصرية ، عن حالة مصر المالية ، فلم يجدوا غير محمد عبده لكتابة هذا المقال ، الذى دبجه بقلمه البليغ واطلاعه

الواسع على شئون مصر المالية ، فأعجب به رئيس الوزارة

وقد أتاح له عمله فى هذه الجريدة ان يهذب الاسلوب الصحفى ويرقى الكتابة العربية ، ويضع لائحة لقلم المطبوعات أو الجريدة الرسمية كما كانت تدعى بهذين الاسمين فى ذلك الزمان . وكان من أحكام هذه اللائحة أن جميع ادارات الحكومة ومصالحها ، ومحاكمها ومجالسها فى العاصمة المصرية وغيرها من المدن والقرى ، تكتب للجريدة مخبرة لها بما أتمت ومالم تتمه من أعمال ومشروعات . وان لرئيس التحرير والمحررين الحق فى انتقاد كل ما يرون انتقاده من أعمال الحكومة والموظفين

وكان من أثر عنايته بلغة الكتابة وتحريه الاسلوب الفصيح فى الوقائع المصرية ان عنيت الصحف المصرية الاخرى بتحسين أسلوبها واختيار المحررين المجيدين . وكان من أثر انتقاد الحكومة وأسلوب موظفيها ولغتهم الركيكة أن عنيت الحكومة بانتقاء الموظفين الصالحين ، وفتحت مدارس ليلية لتعليم القصرين كما عنيت الحكومة بتحرى العدالة ، والحق فى أعمالها ، واصلاح ما فسد من شئونها ، وجعلها تحسب للانتقاد حسابه ، واصبح رئيس تحرير الجريدة الرسمية مهيمنا على سلوك الحكومة ينتقد الاعمال والاقوال ، ويطلع الامة على عيوبها الرسمية والاجتماعية ، ويرشد رجال الحكم وقادة الرأى الى نواحى الرقى والاصلاح

وقد ضاق وزير المعارف فى ذلك العهد بانتقاد الوقائع المصرية ، وشكا الى رياض باشا هذا الانتقاد ، فقال له رياض باشا : « ان كان ما كتبته الجريدة حقا ، فلا وجه للشكوى ، وان كان باطلا فعليك ان تبين ذلك بالبرهان . ومحمد عبده لا يتأخر عن نشره بالجريدة ، فانه لم يقصد

بما كتب الا المصلحة العامة » فسكت الوزير

وقد قال الشيخ محمد عبده فى مذكراته : « ومن فكاهات ذلك العهد أن مدير بنى سويف (أ.بك) بعد ان ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدةالرسميةومؤاخذة نظارة الداخلية له على بعض اخطائه أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية فى مديريته

« وكتب بذلك محررا غير رسمى الى صديقه مدير المطبوعات ، فوقع المحرر فى يد رئيس التحرير (محمد عبده) .. لانه كان العامل وحده فى الادارة (أى هونفس مدير المطبوعات) . فنشرت تلك الفعلة فى منشور عام له ولجميع المديرين ، وادرج المنشور فى الجريدة الرسمية ، فانظر الى اثر ذلك فى أنفس العامة والخاصة . وهذا مما علم الناس طرق الانتقاد على اعمال الحكومة وأفهمهم انها قد أقامت من نفسها مراقبا عاما عليها يبين مواضع الضعف فيها ، ويرشد الى طرق التدارك لما يقع من خلل، وهو مما يرفع الهمم الى أعمال الفكر فى معرفة الحق ، ويسوق العزائم الى طلبه »

وقد رسم الشيخ محمد عبده فى لائحة المطبوعات للجرائد الاخرى وما ينشر من كتب ومطبوعات ما رسمه لنفسه وجريدته من آداب وتعاليم فخدم بذلك الصحافة وخدم اللغة العربية ، وخدم وطنه واسهم فى جهاده القومى والسياسى

هذا هو الدور الثانى من أدوار حياته القلمية ، وهو دور العمل الوطنى والاصلاح الحكومى والاجتماعى ، وكان لمقالاته الوطنية أثرها العظيم فى الثورة العرابية ، وكان الصحفى الاول الذى قدرته الحكومة ، وقدره الشعب ، وكان لارائه وافكاره المكانة الاولى بين الزعماء والكتاب . ولقد كتب المحامى الانجليزى مستر برودلى

الذى دافع عنه فى أثناء المحاكمة يصف تأثير قلمه فى قرائه بما ملخصه :

« كان الشيخ محمد عبده أقوى الوطنيين المصريين موهبة . وأكثرهم تأثيرا فى قرائه وبخاصة فى الطبقة المهذبة من ابناء وطنه ، لانه كان كاتبا قديرا ، وعالما بالعربية ضليعا ، وخطيبا فصيحا يمتلك العقول والالباب . وقد ساعد فى جعل الرأى العام دافعا حقيقيا الى الترقى المصرى ، ولم يكن متعصبا ولا جامدا ، ولا مستهترا بآداب الدين . وكان من العلماء المسلمين الذين يكرهون التعصب ويؤثرون التسامح ، ويحترمون حرية الرأى واستقلال الفكر

« ولا ريب عندى ان أخلاق الشيخ محمد عبده تعتبر مثلا حقا للقوة العقلية والتفكير العظيم .. » !

ذلك بعض ماكتبه هذا المحامى الانجليزى فى وصفه للشيخ محمد عبده ككاتب سياسى وزعيم وطنى وصحافى كبير فى هذا الدور الثانى من حياته القلمية التى سبقت نفيه بثلاث سنوات (١٨٧٩ — ١٨٨٢ م)

الدور الثالث : فى العروة الوثقى

بدأ الدور الثالث من حياته القلمية حين غادر مصر بعد الحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات فى ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢م فسافر الى بيروت ، واقام فيها مدة يعلم الدين ويحاضر فى العلوم والآداب ويكتب فى الصحف السورية ، ويراسل الصحف المصرية أيضا . وبعد نحو عشرة اشهر تلقى من السيد جمال الدين الافغانى دعوة بالسفر الى باريس حيث يقيم فى ذلك الحين بعد هجرته من الهند الى أوربا . فقدكان السيد قد اخرجه الخديو توفيق سنة ١٨٧٩ م من مصر

هو وتابعه « ابو تراب » فأقام فى « حيدر آباد » وفيها كتب رسالته فى « الرد على الدهريين »

ولما قامت الثورة العرابية ألزمته الحكومةالبريطانية بالاقامة فى «كلكتا» عاصمة الهند ، حتى انتهت الثورة فسمحت له بالسفر الى اى بلد يختاره ، فاختار السفر الى أوربا وقصد مدينة لندن ، فأقام بها عدة أيام ، ثم سافر الى باريس للاقامة بها . وفى ذلك الوقت دعا إليه الشيخ محمد عبده ليقوما بعمل حيوى يعود على المسلمين بالنفع العام ، ويحقق أهداف الاسلام

غادر الشيخ محمد عبده بيروت قاصدا باريس حيث التقى بالسيد جمال الدين ، وسكن معه بالحى اللاتينى . ثم وضعا مشروع جمعية اسلامية عرفت باسم « العروة الوثقى » وكانت هذه الجمعية أشبه ما تكون بالجمعيات السرية ، فلم يكن لغير اعضائها ، وهم من زعماء الاسلام ورجاله الغيورين ان يعرف شيئا من أسرارها . وانما يمكنه أن يفهم أنها تعمل لوضع أساس الجمع بين فكرة القومية العربية والجامعة الاسلامية ، وان من أهدافها هداية الناس الى أصول الدين ، والدعوة الى الوحدة الاسلامية ، والسعى فى تأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة ، وانقاذ المسلمين من براثن الاستعمار

وكان لهذه الجمعية قانون أساسى من ثلاثين مادة . ويمين يؤديه كل عضو حين انتظامه فى العضوية وهو يتضمن اغراض الجمعية . ونص هذا اليمين ما يأتى :

« اقسم بالله العالم بالكلى والجزئى ، والجلى والخفى ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لاحكمن كتاب الله تعالى فى اعمالى واخلاقى بلا تأويل ولا تضليل . ولاجيبن داعيه فيما دعا اليه ،

ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا فى نهى،ولأدعون لنصرته، ولاقومن بها ما دمت حيا ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا

« أقسم بالله مالك روحى ومالى ، القابض على ناصيتى ، المتصرف لاحساسى ووجدانى ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لابذلن مافى وسعى لاحياء الاخوة الاسلامية ، ولانزلنها منزلة الابوة والبنوة الصحيحتين ولاعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى ، وانتظم فى عقد من عقودها ، ولاراعينها فى غيرهم من المسلمين ، الا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الاسلام ، فانى أبذل جهدى فى ابطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفسى فى محو اثره مثل ما آخذعليها فى المدافعة عن شخصى

« اقسم بهيبة الله وجبروته الاعلى أن لا أقدم الا ماقدمه الدين ، ولا أؤخر الا ما أخره الدين . ولا اسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضررا يعود على الدين ، جزئيا كان أو كليا . وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه

« وعلى عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الاسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه أعرفه. وماجهلته أطلب علمه من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه امكانى الوجودى

« وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الامل ، وتأييد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه . آمين »

وفى الخامس من جمادى الاولى سنة ١٣٠١هـ الموافق ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م صدر العدد الاول من جريدة العروة الوثقى بباريس لتكون لسان حال هذه الجمعية. وقد كتب فى راسها : «مدير السياسة السيد جمال الدين

الافغانى » و «رئيس التحرير محمد عبده »

وعلى الرغم من النفقات الباهظة التى تلزم لاصدار جريدة عربية فى باريس فان الجمعية كانت تهديها الى ملوك الغرب وامرائهم وقادتهم وزعمائهم ، وترسلها الى كل من يطلبها مجانا

وقد صدر العدد الاول بمقال جاء فى مطلعه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« لماذا صدرت الجريدة

« ربنا عليك توكلنا واليك انبنا ، واليك المصير

« هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتوكل فى نجاح العمل

« خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ، ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الانفس ، ثم التوت . أوغل الاقوياء من الامم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا البابهم حتى أذهلوهم عن انفسهم ، وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحمله النفوس البشرية

« ذهب قوم الى ما يسوله الوهم ، ويغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية ، وان قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية ، وان اتفقت آحادها ، بل زعموا انه يمكن استهلاك الجم الغفير فى النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس ويبطله البرهان .. »

ثم أخذ يفند هذا الرأى .. وانتقل الى بيان اخلاق الامم الضعيفة ، واستكانتها للاستبداد والطغيان ، ونعى عليها التفرقة ، وخاصة فى بلاد المسلمين ، التى اتاحت للاستعمار السيادة عليها بسبب الخلاف والتفرقة

والنزاع . واوضح كيف بلغ الاجحاف غايته ووصل العدوان نهايته فى هذه البلاد ، وكيف أصبحت الحالة سيئة فى مصر التى تعتبر عند المسلمين زعيمة الاقطار الاسلامية ، ثم تحدث عن وجوب الدعوة للعمل فى الشرق وفى بلاد العروبة والاسلام لاصلاح ما افسده الخلاف ومحاربة الاستعمار الذى يعمل على هدم القومية العربية، ومجد المسلمين والاسلام . وابان أن أعضاء جمعية العروة الوثقى اختاروا أن تكون لهم جريدة بأشرف لسان عندهم، وهو اللسان العربى ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم الى الاقطار القاصية ، تنبيها للعاقل ، وتذكيرا للذاهل .. !

وبعد ذلك تحدث فى الافتتاحية عن منهج « العروة الوثقى » واغراضها فقال ما ملخصه :

١ ــ تضع الجريدة نفسها فى خدمة الشرقيين عامة، فتبين لهم الواجبات التى يجب عليهم القيام بها ، والتي كان التفريط فيها سببا فى تدهورهم ، وتوضح الطرق التى يجب اتباعها لتدارك الاخطاء الماضية ، وتجنب الاضرار فى المستقبل .

٢ ــ تبحث الاسباب والعلل التى ادت الى ضعف المسلمين وفى طليعتها تفريطهم فى تعاليم الدين

٣ ــ تكشف الغطاء عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، وتزيح الوساوس التى سيطرت على عقول الكثيرين

٤ ــ تحاول أن تحيى الامل فى النفوس ، وتبين أن طريق النهوض ليست بالصعوبة التى توجب فتور الهمة وخور العزيمة

٥ ــ تهتم بالرد على التهم التى توجه الى المسلمين

والاسلام ، وعلى الشرقيين ، وستفند مفتريات الغربيين القائلين بأن المسلمين لن ينهضوا ماداموا متمسكين بأصول دينهم

٦ ـ توالى الجريدة اطلاع الشرقيين على الاحداث العالمية وأسرارها ليحيطوا علما بما يدبره السياسيون الاوربيون

٧ ـ تعمل الجريدة على تقوية الروابط بين الامم الاسلامية ، وبيان المنافع المشتركة بينها وتمكين الالفة بين افراد هذه الامم

وقد استقبلت الصحف الفرنسية الحرة « العروة الوثقى » استقبالا حسنا ، ورحبت بصدورها ، واشارت بفضل القائمين على تحريرها ، ومكانتهما فى العالم الاسلامى

أما الصحف الانجليزية ، فقد حملت عليها حملات شعواء . وفى مقدمتها جريدة التيمس الاستعمارية ، واتهمتها بأنها وكر للدسائس ، وأخذ الانجليز يحاربونها فى كل مكان لهم نفوذ فيه ، ويقفون دون انتشارها فى العالم الاسلامى والبلاد الخاضعة للسيادة الانجليزية . وقد صدر الامر وقتئذ بمنع دخولها فى بلاد الهند ، واجتمع مجلس الوزراء المصرى فى جلسة خاصة بايعاز المحتلين الانجليز ، قرر فيها منع دخول جريدة العروة الوثقى فى البلاد المصرية ، وان يدفع كل من تضبط معه غرامة قدرها خمسة جنيهات مصرية

لم تفت هذه العقبات فى عضد السيد جمال الدين ولا فى عضد الشيخ محمد عبده ، فظلا يصدران الجريدة ، واخذ الشيخ محمد عبده يحرر مقالاته نهارا ، ويتلقى دروسا فى اللغة الفرنسية ليلا ، ويواصل العمل فى تعزيز

شأن الجمعية ، وبث دعايتها فى العالم الاسلامى

وكان مستر ويلفرد بلنت صديق مصر والمصريين فى ذلك الحين ومؤلف كتاب « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى » قد وجه دعوة خاصة للشيخ محمد عبده لزيارة انجلترا ليبسط قضية بلاده للرأى العام ، فلبى دعوته ، وهناك التقى بكثيرمن رجال السياسةالانجليزية ، وجرت بينه وبينهم عدة أحاديث تناولت الاحتلال البريطانى لمصر ، وكان ممن قابلهم اللورد هرتنكتون وزير الحربية الذى سأله قائلا :

ـ الا يرضى المصريون بحكم الانجليز الذين خلصوهم من ظلم الاتراك واستبداد الباشوات ؟ !

فرد عليه الاستاذ الامام بأن مصر تأبى أن تستبدل استعبادا باستعباد ، ولا تقبل غير الحرية والكرامة والاستقلال ، ثم بسط له القضية المصرية من عهد محمد على باشا الكبير ، وكيف أفسدت الدول الاوربيةالسياسة الشرقية ، وسيطرت على العالم الاسلامى

ومضت على ظهور « جريدة العروة الوثقى » بضعة اشهر صدر فيها ثمانية عشر عددا . ثم توقفت عن الظهور فى اكتوبر ١٨٨٤م لضعف مواردها المالية ، وقلة المساعدات ، فرأى السيد جمال الدين الافغانى انيكف عن اصدارها ، ولما عاد محمد عبده من رحلته فى بلاد الانجليز كاشفه جمال الدين برأيه ، فاضطر مرغما أن يوافقه . وهكذا ماتت الجريدة ، وعاد الى بيروت يحاضر فى علوم الدين ، ويلقى دروسه فى المدرسة السلطانية .!

وقد كتب الشيخ محمد عبده فى ترجمته لاستاذه السيد جمال الدين عن هذه الجريدة ، فقال :

« .. ولما كلفته جمعية العــروة الوثقى أن ينشيء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية أيدها الله ، سألنى أن اقوم على تحــريرها ، فأجبت ونشر من الجريدة ثمانية عشر عددا . وقدأخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصامالم يأخذه قبلها وعظ واعظ ، ولا تنبيه منبه . وذلك لخلوص النية فى تحريرها ، وصحة المقصد فى تحبـــيرها . ثم قامت الموانع دون الاستمرار فى اصدارها ، اذ اقفلت أبواب الهند عنها ، واشتدت الحكومة الانجليزية فى اعنـــات من تصل اليهم فيه . ثم بقى السيد بعد ذلك مقيمابأوربا اشهرا فى باريس ، وأخرى فى لندرة الى أوائل شـــهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ هـ . وفيه سافر الى البلاد الايرانية »

واذا كانت جريدة العروة الوثقى قد انشئت لخدمة الاسلام والمسلمين ، فانها لم تكن تحارب الاديان الاخرى، او تسعى بالفرقة بين ابناء الشرق المختلفين فى الدين ، بل كانت الحرية رائدها ، والتسامح منهجها ، والوحدة مبداها . ولهذا كتب الاستاذ الشيخ محمد عبده فى العدد الثامن الصادر منها فى ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ م يزيل كل شبهة عن لهجتها الاسلامية ، وينفى عنها التعصب، ويقول:

« لا يظن احد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر احيانا ، ومدافعتها عن حقوقهم تقصـد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ، ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة ؛ فليس هذا من شأننا ، ولا مما نميل اليه ، ولا يبيحه ديننا، ولا تسمح به شريعتنا . ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصـــوصا من تطاول الاجانب عليهم ،

والافساد فى بلادهم

« وقد نخص المسلمين بالخطاب لانهم العنصر الغالب فى الاقطار التى غدر بها الاجانب ، واذلوا اهلها اجمعين ، واستأثروا بجميع خيراتها . . »

الدور الرابع : فى الصحف السورية

عاد الشيخ محمد عبده من باريس الى بيروت بعد تعطيل جريدة « العروة الوثقى » ، فأخذ يحاضر فى الدين لطلبة العلم ومريديه ، ويعلم الناس فى داره وفى النوادى العلميـة امور دينهم ويرشـدهم الى خير دنياهم . ثم اختارته جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية للتدريس فى المدرسة السلطانية . وفى أثناء ذلك كان يكتب المقالات العلمية والبحوث الاسلامية والاجتماعية والسياسية فى جريدة ثمرات الفنون البيروتية . فنشرت له عدة مقالات وبحوث منها : « مصر وجريدة الجنة » . وهى رد على مقالة نشرتها « جريدة الجنة » تتضمن تقريعا وتعنيفا للمصريين لخروجهم على الخديو محمد توفيق ، وكانت جريدة الجنان قد سبقت الجنة الى هذا المعنى ، واتهمت المصريين بذنوب لم يقترفوها ، ورجعت بالثورة العرابية والاحتلال البريطانى الى أسباب ليست هى الاسباب الحقيقية . وقد قال فى هذا الرد عن أسباب الاحتلال :

« . . غير ان الحكومة الانكليزية على عادتها فى اختلاق العلل ، وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجوه المطامع ، واتخذت مجرد التغيير فى بعض نظامات الحكومة الخديوية سببا للمناواة ، واندفعت لتسير مراكبها الى مياه الاسكندرية تهديدا ، وعدوانا . ثم نفخ بعض رجالها فى انوف ضعفة العقول

من الاجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين ، قضاء لشهوة انجليزية . واقامت منها حكومة انجلترا حجة فى العدوان . ولو ان بصيرا نظر الى أحوال القطر المصرى بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل فى ذلك القطر من يوم وردت المراكب الأنجليزية لثغر الاسكندرية . ولا نسبة بين ماكان قبل ذلك من عموم الامن ، ورواج الاعمال ، وانتظام المصالح ، وبين ماكان بعده .. »

ثم قال فى نهاية المقال :

« .. فقد تبين أن من حظ الانجليز ايقاع النفرة بين الخديو ورعيته ، ليتم لهم ما يريدون منهما . كما مرنوا عليه فى كل بلد دخلوه

« هذه هى الحقيقة التى ينكرها الجهلاء ، ويعرفها العقلاء . فلم تكن أسباب المشاكل ما ذكره حضرة الكاتب ، وانما سببها الجشع الانجليزى الذى اتفق عليه سياسو العالم .. »

ثم كتب فى هذه الجريدة مقالا عن كتب الغزوات الاسلامية واخبار الفتوح الاولى مما يباع فى الاسواق ، ويحتوى على تشويه لسيرة النبى وتاريخ الاسلام والمسلمين وقد أوضح فى هذا المقال ما ينبغى الاعتماد عليه فى هذه الكتب وما لا ينبغى

وقد كتب فى ثمرات الفنون مقالا ردا على رسالة نشرتها جريدة التيمس للسير صمويل باكر بعنوان : « السودان ومصر وانكلترا » ومقالا عن مصر والمحاكم الاهلية ، واخر عن اللغة العربية فى المحاكم الاهلية . وذكر فى الاولى انها رسالة من مصر للابهام . أما الثانية ، فقد كتبها بعد عودته الى مصر

الدور الخامس : بعد عودته الى مصر

ولما رجع الى مصر فى أوائل سنة ١٨٨٨ م بعد ان اقام فى بيروت نحو ست سنوات نشرت له الصحف المصرية كثيرا من بحوثه القيمة . وقد اشتهرت مقـــالاته التى نشرتهـــا جريدة المـــؤيد فى الـــرد على هانوتو أحـــد وزراء فرنســـا وكتابها فى الاســـلام والعقائد السامية والآرية ، كمـــا اشـــتهرت مقـــالاته فى فلسفة ابن رشـــد والرد على مجلة الجامعة والمقابلة بين الاسلام والنصرانية فى التسامح الدينى والعلم والمدنية التى جمعناها فى كتاب « الاسلام دين العلم والمدنية »

ولما قام الاستاذ الامام برحلاته فى صقلية وانجلترا وبعض المدن الاوربية وشمال افريقيا كتب عدة مقالات فى مجلة «المنار» .. أما بحوثه فى اصلاح التعليم واصلاح الازهر الشريف، ورسائله الاصلاحية السياسية والدينية، فقد نشر بعضـــها فى المنار والصـــحف الاخرى ، ونشر البعض الآخر بعد وفاته فى « تاريخ الاســـتاذ الامام » للسيد محمد رشيد رضا

هذا عدا كتاب « رسالة التوحيد » وما وضـــعه فى تفسير القرآن ، وما كتبه عن الثورة العرابية ، وما ترجمه عن سبنسر فى التربية ، وعن الفارسية فى الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الافغانى ، وما شرحه من كتب الادب كنهج البلاغة للامام على بن أبى طالب ، ورسائل بديع الزمان الهمزانى ، وكتـــاب البصـــائر النصيرية فى المنطق ، وكتاب المخصص لابن ســـيده الذى حققه مع العلامة الشنقيطى ، وكتاب اسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، ورسائله الادبية والاخوية لاصدقائه

وقد كتب الى صديقه الكاتب الانجليزى مستر ويلفرد

بلنت رسائل فى صيف سنة ١٩٠٤ م تضمنت آراءه الاخيرة فى النظام السياسى المقترح لمصر . وقد نشرت هذه الرسائل مترجمة الى الانكليزية فى كتاب بلنت « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » سنة ١٩٠٧م بلندن

وللاستاذ الامام آثار قلمية مخطوطة ، بعضها موجود وبعضها الاخر مفقود . ومن الموجود : « رسالة فى علم الوضع » بخط الشيخ محمد عبده وهى فى عشر صفحات و « دروس دار الافتاء » التى كان يلقيها فى دار الافتاء بالازهر ، و « رسالة فى المنطق » وهذه المخطوطات عند الدكتور عثمان أمين . ورسالة فى التربية لهربرت سبنسر ترجمها الشيخ محمد عبده عن النسخة الفرنسية وهى فى حوزة الاستاذ الاديب راشد رستم

اما المفقود من المخطوطات ، فمن ذلك « رسالة فى وحدة الوجود » . و « فلسفة التاريخ والاجتماع » . وهو يحوى محاضرات الشيخ محمد عبده فى مدرسة دار العلوم . وكتاب فى نظام التربية المصرية ، وآخر فى تاريخ اسماعيل باشا

***

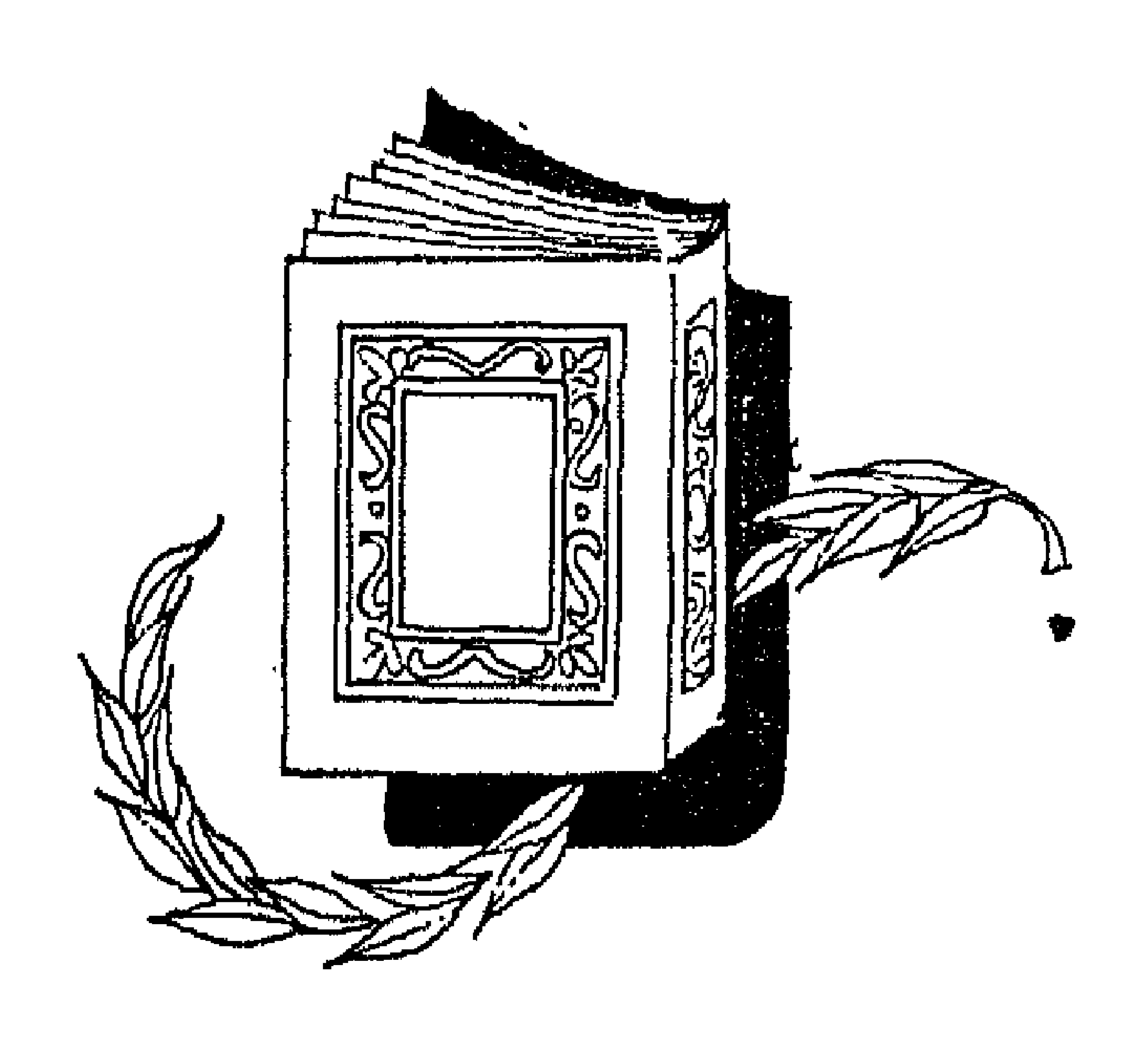
وقد راينا ان ما خلفه الاستاذ الامام من تراث قلمى ينقسم الى قسمين : قسم لمناسبات خاصة ليست قائمة الآن . وقسم كتبه من خواطره وفلسفته وآرائه فى الاسلام والمسلمين مما يصلح لكل زمان ومكان ، وما يستفيد به هذا الجيل وكل جيل ، فحرصنا على احيائه مع العناية بعرضه وتحقيقه

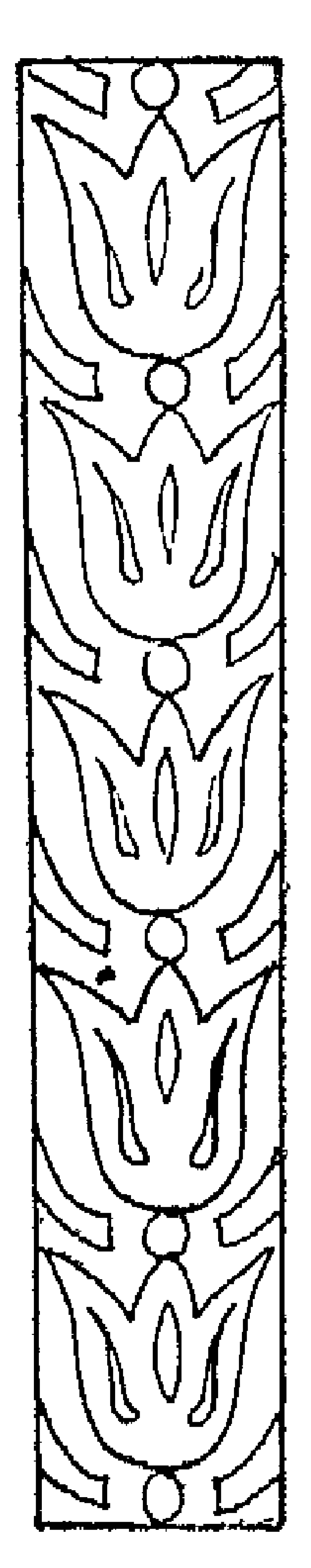
ومن ذلك هذا الكتاب « المسلمون والاسلام » الذى نقدمه اليوم . وقد اخترناه مما كتبه فى « الوقائع

المصرية » و « العروة الوثقى » و «مجلة المنار » و « ثمرات الفنون » وغيرها من الصحف المصرية والسورية ، وجعلناه يشتمل على ستة فصول تناولت موضوعات مفيدة فى الاسلام وشئون المسلمين ، تهم جميع القراء ولو كانوا من غير المسلمين ، لانها موضوعات تتناول الانسان من حيث هو انسان فى حاجة الى الاصلاح النفسى والدينى كما تتناول المجتمع الانسانى من اهم نواحيه ، وتعالج الشئون الاجتماعية والمسائل الكونية التى لا يقتصر التفكير فيها على دين من الاديان او مذهب من المذاهب

وسوف يرى القراء في صفحات هذا الكتاب ذخيرة ثقافية ممتعة تفتح امام الناس آفاقا من المثل العليا والراى الناضج ، والتفكير السليم الذى يقوم على أسس متينة ويهدف الى النهوض بالفرد والجماعة من وهدة التخلف الى مدارج الرقى والاصلاح العام

طاهر الطناحى





دين الوحدة
والسيادة
والقوة

الوحدة الإسلامية

« وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » قرآن كريم

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغـــرب الاقصى الى تونكانى على حدود الصين فى عرض ما بين فازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء ٠٠ اقطـــار متصلة ، وديار متجاورة ، يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب ٠ اخذ بصولجان الملك منها ملوك عظام ، فأدارزوا بشوكتهم كرة الأرض الا قليلا ٠٠ ما كان يهزم لهم جيش ، ولا ينكس لهم علم ، ولا يرد قول على قائلهم ٠٠ قلاعهم وحصونهم متلاقية ، ومنابتهم ومغارسهم فى سهوبهم «أراضيهم السهلة الواسعة» واخيافهم «الاراضى المنحدرة عن الجبل» رابية مزدهية بأنواع النبات ، حالية بأصناف الاشجار ، صنع ايدى المسلمين ، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم ، وتفاخرها بشموس الفضل ، وبدور العلم ونجوم الهداية ، من رجال لهم المكان الاعلى فى العلوم والآداب.

كان فى الشرق من حكمائهم : ابن سـينا ، والفارابى ،

والرازى ، ومن يشاكلهم ، وفى الغرب : ابن باجه ، وابن رشد ، وابن الطفيل ،ومماثلوهم . .وما بين ذلك امصار تتزاحم فيها اقدام العلماء فى الحكمة والطب والفن والهندسة وسائر العلوم العقلية ، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى جميع طبقات الملة . كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين (١) وترتعد منها فرائص اعظم الملوك فى أوربا . ومن ملوكهم فى قرونهم المتوسطة مثل : محمود الغزنوى (٢) وملكشاه السلجوقى (٣) ، وصلاح الدين الايوبى ، وكان منهم فى المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفى الغرب السلطان محمد الفاتح ، والسلطان سليم ، والسلطان سليمان العثمانى .. أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم

كانت لاساطيل المسلمين ساطة لاتبارى فى البحر الابيض والاحمر والمحيط الهندى ، ولها الكلمة العليا فى تلك البحار الى زمان غير بعيد .. كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم ، والمسلمون اليوم هم هم يملأون تلك الاقطار التى ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن اربعمائة مليون ، وأفرادهم فى كل قطر بما اشربت قلوبهم من عقائد دينهم اشجع وأسرع اقداما على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد الناس

---

(١) فغفور : لقب ملوك الصين فى ذلك الزمان

(٢) محمود الغزنوى ولد سنة ٩٦٧ م ومات سنة ١٠٣٠ م من عظماء التاريخ الاسلامى فتح غزنه التى تدعى افغانستان الان، ثم فتح الهند وأدخل فيها الدين الاسلامى

(٣) ملكشاه بن الب ارسلان ، سلطان سلجوقى تولى الملك سنة ١٠٨٢ م الى ١٠٩٢ م زوج ابنته للخليفة المقتدى العباسى وكان هدفه اعادة المجد الى الخلافة بسيف السلجوقيين

ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل ..
جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الاخذ بالظنون والتمسك بالاوهام ، ويدعو الى الفضائل وعقائل الصفات ، فأودع فى افكارهم جراثيم الحق وبذر فى نفوسهم الفضل ، فهم بأصول دينهم انور عقلا وأنبه ذهناوأشد استعدادا لنيل الكمالات الانسانية وأقرب الى الاستقامة فى الاخلاق .. وربما يرون لانفسهم من الاختصاص بالشرف ، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شئون العالم اجمع ولو كره المبطلون ، لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم ، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم ، وان بلغت من الشدة او اللين ما بلغت .. لما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد ، يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه . ذلك احساس يشعر به وجدانه ولايجد عنه مسليا ، وبما ساخ « غاص ورسب » فى نفوسهم من جذور المعارف التى ارشدهم اليها دينهم ، ونالوا منها النصيب الاعلى فى عنفوان دولتهم ، يعدون أنفسهم اولى الناس بالعلم واجدرهم بالفضل

***

ذلك شأنهم الاول وهذا وصفهم للآن ، ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها اساتذة العالم ، وأخذت ممالكهم تنقص اطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم ان لايدينوا لسلطة من يخالفهم .. بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الاجنبى عنهم ، وكشفها عن ديارهم ، بل منازعة كل ذى شوكة فى شوكته .. هل نسوا

وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون .. هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشئون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن ان الله اشترى منهم لاعلاء كلمته انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؟ لا .. لا .. ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين ، حاكمة في ارادتهم ، وسواء فى العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم

نعم يوجد للتقصير فى انماء العلوم ، وللضعف فى القوة اسباب ، أعظمها تخالف طلاب الحكم فيهم لأنا بينا ان لاجنسية للمسلمين الا فى دينهم ، فتعدد الحكام عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ، والسلاطين فى جنس واحد ، مع تباين الاغراض وتعارض الغايات ، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، والهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهى أشبه شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير فى طلب مالم ينالوا منها ، والاغسار (١) دون الترقى فى عواليها .. ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف فى القوة والخلل فى النظام . وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الاجانب بالعدوان عليهم

هذا كان من امراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين فى ميادين الوغى ، لا يجاريهم فيها سواهم من الملل .. ولكن ضرب الفساد فى نفوس اولئك الامراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص

---

(١) الاغسار : اى التقصير

وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى ، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل ، وقنعوا بألقاب الامارة واسماء السلطنة وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، وأختاروا موالاة الاجنبى عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على ابناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل !

هذا الذى أباد مسلمى الاندلس ، وهدم أركان السلطنة التيمورية فى الهند ومحا اطلالها ، وعلى رسومها شيد الانجليز ملكهم بتلك الديار .. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالبلاد الاسلامية ، ودهورتها امانيهم الكاذبة فى مهاوى الضعف والوهن ، قبح ما صنعوا وبئس ماكانوا يعملون

أولئك اللاهون بلذاتهم ، العاكفون على شهواتهم ، هم الذين بددوا شمل الملة ، وأضاعوا شأنها ، وأوقفوا سير العلوم فيها ، وأوجبوا التراخى فى الاعمال النافعة ، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدى بنيها

!لا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس .. ما أشد ضررهما وما أسوأ اثرهما ، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضا من اعظم فروضه ، فاختلفوا والعدو على ابوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا فى الكلمة الجامعة ، حتى يدفعوا غارة الاباعد عنهم ، ثم لهم ان يعودوا لشئونهم .. ماذا أفادتهم المغالاة فى الطمع والمنافسة فى السفاسف ؟ .. أفادتهم حسرة دائمة فى الحياة ، وشقاء أبديا بعد الممات ، وسوء ذكر لا تمحوه الايام

أما وعزة الحق وسر العدل ، لو ترك المسلمون وأنفسهم

بماهم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم ، لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم ، ولكن وا أسـفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى قلب أمير او ملك ولو على قرية لا امر فيها ولا نهى .. هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله ، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب

***

الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسـلامية ، من اشد اركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من أوليـات العقائد عند المسلمين لا يحتاجون فيه الى استاذ يعلم ، ولاكتاب يثبت ، ولا رسائل تنشر .. ان رعاة المسـلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم ، وتفيض من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الاهواء ، ولولا وجود الغواة من الامراء ، ذوى المطامع فى السلطة بينهم ، لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، شماليهـم بجنوبيهم ، ولبى جميعهم نداء واحدا

ان المسلمين لايحتاجون فى صـيانة حقوقهم ، الا الى تنبه أفكارهم لمعرفة مابه يكون الدفاع ، واتفاق آرائهـم على القيام به عند لزومه ، وارتباط قلوبهم النـاشىء عن احساس بما يطرأ على الدين من الاخطار

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هـذه الاصول الثلاثة ، هى امة كانت متأخرة فى الفنون والصنائع عن سائر امم اوربا وليس فى ممالكها ينـابيع للثروة ، ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضـها من الاعمـال الصناعية ، فهى مصابة بالحاجة والاعواز .. غير ان تنبه افكار آحادها لما به يكون الدفاع عن امتهم واتفاقهم فى النهوض به وارتباط قلوبهم ، صير لها دولة تميـد

لسطوتها رواسى اوربا .. لم يكن لروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكرى الى حد ما عليه جيرانها .. الا ان هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الامم الاخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها صولة تخيف ، وحملة تخشاها دول اوربا .

فما الذى اقعدنا عن مشاكلة غيرنا ، فيما هو ايسر الاشياء علينا ، ونحن اشد الناس ميلا اليه : من رعاية شرف الدين والتألم بما يحط منه ، والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها ؟

ما رد الافكار عن الحركة ، وما الهمم عن النهوض . الا اولئك المترفون ، يحرصون على طيب فى المطعم ، ولين فى المضجع ، وتطاول فى البنيان ، وتفاخر بالخدم والحاشية ولا يراعون فى حرصهم ما بعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متنوع ، يقنعون منه بالاحتفال لهم فى المواسم والاعياد وهز الرءوس وثنى الاعطاف ، تعظيما وتبجيلا ، ثم تذييل الاوراق الرسمية بأسماء ليس لهنا مسميات .. هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل(١) بكل دنيئة ، هؤلاء يقبلون من تصرف اعدائهم فى بيوتهم مالا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته ، أولئك صاروا فى اعناق المسلمين سلاسل واغلالا ، يحبسون هذه الاسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب ، ولاحول ولاقوة الا بالله .

ايا بقية الرجال ، ويا خلف الابطال ، ويانسل الاقيال هل ولى بكم الزمان ، هل مضى وقت التدارك ، هل آن أوان اليأس .. لا .. لا ، معاذ الله ان ينقطع أمل

---

(١) المواثل : جمع ماثل من الرسوم ماذهب أثره

الزمان منكم .. ان من ادرنه (١) الى بيشاور دولا اسلامية متصلة الاراضى ، متحدة العقيدة يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا (٢) ، وهم ممتازون بين اجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، اليس لهم ان يتفقوا على الدفاع والاقدام كما اتفق عليه سائر الامم .. ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ، **فالاتفاق من أصول دينهم . هل اصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض ، أليس لكل واحد ان ينظر الى أخيه بما حكم الله فى قوله ((انما المؤمنون اخوة)) فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب**

لا ألتمس بقولى هذا ان مالك الامر فى الجميع يصبح شخصا واحدا ، فان هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه ، الا ان هذا بعد كونه اساسا لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الاوقات

هل آن الاتفاق ؟ .. هل آن الاتفاق ؟

الا ان الزمان يواتيكم بالفرص وهى لكم غنائم ، فلا تفرطوا .. ان البكاء لايحيى الميت ، ان الاسف لايرد الفائت ، ان الحزن لا يدفع المصيبة .. ان العمل مفتاح النجاح ، ان

---

(١) أدرنه بلدة فى شمال تركيا فى حدود بلغاريا . وبيشاور ، اوبيشار بلدة فى اقصى المغرب العربى

(٢) يزيد عدد المسلمين الآن فى هذه المنطقة على مائة مليون . واذا اضفنا عليه عددهم فى الهند والصين واندونيسيا وباكستان وغيرها ، فان عدد المسلمين يكون نحو خمسمائة مليون

الصدق والاخلاص سلم الفلاح ، ان الوجل يقرب الاجل ، ان اليأس وضعف الهمة من اسـبـاب الحتف : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »

الا لاتكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ، احذروا ان تقعوا تحت قول الله : «رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون »

ان القرآن حى لايموت ، ومن اصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا اليه ، وحكموه فى أحوالكم وطباعكم « وما الله بغافل عما تعملون »

ولعل حكام المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهموا بملافاة امرهم ، قبل ان يقضى عليهم ، بما رزىء به المفرطون من قبلهم

ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن اعلاهم مرتبة ، واقواهم شوكة ، ولا نرتاب فى ان العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى فى هـذا العمل الشريف ، والله يهدى من يشاء ولله الامر من قبل ومن بعد



الوحدة والسيادة

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »
((حديث شريف))

امران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدى اليهما الدين تارة أخرى ، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب .. وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه بل يستلزمه ، وبهما نمو الامم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها ، وهما الميل الى وحدة تجتمع ، والكلف بسيادة لا تتضع . واذا اراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه « يثبت ويقيم » الى اجل مسمى ، اودع فى ضئاضئه « أصوله » هذين الوصفين الجليلين ، فأنشأه خلقا سويا ، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين الى منتهى أجله

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ، ويشتد به بناؤها ، فلابد يوما ان تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الارض . ان التغلب فى الامم كالتغذى فى الحياة الشخصية، فاذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ، ثم

إرتدت الذبول والنحول ، ثم افضت الى الموت والهلاك .. وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها ، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها ، الا أن تكون متفقة فى تحصيل ما تحتاج اليه هيئتها .. اذا احسست من أمة ميلا الى الوحدة ، فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على مختلف الامم .. اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب فى وجودها وفنائها ، وجدنا سنة الله فى الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب .. وما انحرف شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم ، الا عند لهوهم بما فى ايديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ، ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلا الا بعد ماررزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فاورثهم ذلا طويلا وعذابا وبيلا ، ثم فناء سرمديا .

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه احساس كل فرد من أفراد الامة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ اشهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به

وهذا الاحساس هو مايبعث كل واحد على التفكير فى احوال أمته ، فيجعل جزءا من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد ، وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون اهتمامه بالتفكير فى هذا أقل من اهتمامه بالنظر فى أحواله الخاصة ، ثم لايكون نظرا عقيما حائرا بين جدران المخيلة ، دائرا على أطراف الالسنة .. بل يكون استبصارا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على

استكماله بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القـدرة على نحو ما يكون فى الحصول على مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الانفس أن شأن الامة فى المكان الاول من النظر ، والدرجة الاولى من الاعتبار ، والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منهما . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لاوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ، ويخترطون سيوفا من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونواد من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ويجمعوا ذلك للامة ، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها ، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمـر الغالب ، بل يزيد عليه مافيه الكفاية لابنائه من بعده .. وان الدور الاول من أعمار الامم لاينقص عن خمسة قرون، ثم تتلوه سائر الادوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولة ، وبدء الكمال فيما يليه .. فما ارفع همم العقلاء فى الامم المستبصرة

اذا بلغ الاحساس من مشاعر افراد الامة الى الحـد الذى بيناه ، رأيت فى الدهماء منهم والخاصة همما تعلو ، وشيما تسمو ، واقداما يقود ، وعزما يسوق .. كل يطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم ، فى سبيل الطلب . فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم ، كما تندفع السيول على الوهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا أليه ، ويكون ولايتهم على الامم بعد الغلب الاول تدفقا من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية الا فى اعداد وسائل الفوز والظفر

هذان الامران : الوفاق ، والغلب ، عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان

على من يستمسك بهما • ومن خالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة

جاء فى قول صاحب الشرع « ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه ، اذا مس أحدهما ألم تأثر له الاخر ، وجاء فى نهيه « لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلاك ، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق والتغابن ، وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد ان كانوا أعداء ونطق الكتاب الالهى « انما المؤمنون اخوة » وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف ، ثم شدد على وجوب الاصلاح وان أدى الى مقاتلة الباغى ، فقال : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » وقد أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات » . وتوعد الكتاب الاقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الاليم ، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ماتولى ، ويصله جهنم وساءت مصيرا

وفى أمره الصريح ايجاب التعاون على البر والتقوى ، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق واعلاء منار الامة ، وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم « أن يد الله مع الجماعة » وكفى بالقدرة الالهية عونا اذا صح الاجتماع وصدقت الالفة ، وقد بلغت مكانة الاتفاق فى

الشريعة الاسلامية أسمى درجة فى الرعاية الدينية ، حتى جعل اجماع الامة واتفاقها على أمر من الامور كاشفا عن حكم الله وما فى علمه . وأوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين ، وعد جحوده مروقا من الدين ، وانسلاخا عن الايمان ، ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت الى حلف (١) الفضول لفعلت » ، فهو من حلف الجاهلية ، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى اليه .. وهذا اجمال الادلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين ، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم ، فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه

***

وأما السعى لاعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة ، فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف الا وهى داعية اليه ، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه ، حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء المفروض منه

ومن الاوامر الشرعية أن لايدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفى السنة المحمدية والسيرة النبوية ، مما يضافر آيات القرآن ماجمعه العلماء فى مجلدات يطول عدها .. هذا حكم ديننا لايرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته

هل يمكن لنا ونحن على مانرى من الاختلاف والركون

---

(١) حلف الفضول ما كان بين بنى هاشم وبنى زهرة وتيم حين وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على ان يدفعوا الظالم ، ويأخذوا الحق من الظالم . وسمى حلف الفضول ، لأنهم تحالفوا على الا يدعوا عند أحد فضلا يزيد على حقه، ويكون نواله بالظلم الا اخذوه منه وردوه لصاحبه

الى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا ؟. كيف ومعظم الاحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب الا به ، فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا .. هل لنـــا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب ، يوم لا ينفع خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ، وايسر شفاعة الينـــا اقامتها وعديدنا اربعمائة مليون او يزيد ، هل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلنا ضمائرنا ان نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟.

كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ، وزامينا بسهامها ، الا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه ، لو أدينا حقوقا تطـــالبنا تلك الكلمة التى تهل بهـــا السنتنا ، وتطمئن قلوبنا بذكرها ، وهى كلمة الله العليا

هل كان يمكن للاغراب ان يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا ، وهل كنا نشيم (١) نيران الاعداء الا واقدامنا فى صياصيهم (٢) ، وأيدينا على نواصيهم .. ان لابناء الدين الاسلامى يقينا بما جـــاء به شرعهم ، لكن اليس على صاحب اليقين بدين ان يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين ؟ « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »

ولا ريبة فى أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لاكاذبا وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب

---

(١) يشيم : تطلع نحوه ببصره

(٢) الصياصى : كل ما امتنع به كالحصون والقلاع

الا الصدق فى العمل ، هل يود المسلم لو يعمر الف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة هو دليل الايمان

أنرضى ونحن المؤمنون ــ وقد كانت لنا الكلمة العليا ــ أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لايذهب مذهبنا ، ولايرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا الا ولا ذمة ، بل أكبر همه ان يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منـــا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ، والجالية من أمته

لا .. لا .. ان المخلصين فى ايمانهم ، الواثقين بوعد الله فى نصر من ينصر الله ، الثابت فى قوله : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » لايتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم ، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية فأين المفر .. المبصر بنور الله يعلم أنه لاسبيل لنصر الله وتعزيز دينه الا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة ، وأملاكنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى فى أيدينا ثم لانبدى حركة ، ولا نجتمع على كلمة ، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟ .. واخجلتـــاه لو خطر هـــذا ببالنا ، ولا أظنه يخطر ببال مســـلم على لسانه شـــاهد الاسلام

ان الميل للوحدة ، والتطلع للسيادة ، وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الاسلام ، كل هذه صفات كامنة فى نفوس المســـلمين قاطبـــة ، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا اليه فى الفصل الســـابق فألهاهم عما يوحى به الدين فى قلوبهم واذهلهم أزمانا عن سماع صـــوت الحق يناديهم من بين جوانحهم ، فسهوا وما غووا ، وزلوا وما ضلوا ، ولكنهم

دهشوا وتاهوا ، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الارض في الليالي المظلمة ، كل يطلب عونا وهو معه ولكن لايهتدي اليه

وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لايصال اصوات بعض المسلمين الى مسامع بعض ، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت .. وليس ذلك بعسير عليهم ، بعد ما اختص الله من بقاع الارض ببيته الحرام بالاحترام ، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع . وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم ، فما هي الا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الارض ، وتضطرب لها سواكن القلوب

هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية ، فان أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الاجانب عليهم ، وما ضاقت به صدورهم من غارات الاغراب على بلادهم ، حتى بلغت أرواحهم التراقي ، ذهبت الى ان الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن يكون فعلا ، وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ، ويهيء لهم فوزا ونجاحا (١) بعون الله الذي ما خاب قاصده ، وهو ربي اليه أدعو واليه أنيب

---

(١) لقد تحقق أمل الاستاذ الامام عن فوز كثير من البلاد الاسلامية بالحرية والسيادة والاستقلال والخلاص من نير الاستعمار ، ولكن بقيت الوحدة التي تجمع شمل هذه البلاد وتزيدها حرية وسيادة وقوة

الأمل وطلب المجد

« انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »
« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون »
« قرآن كريم »

تلك آيات الكتـاب الحكيم ، تنبىء عن سر عظيـم ، اختص الله به الانسان ، ورفعه به على سائر الاكوان ، ليبلغ به المقام المحمود ، ويحوز ما أعدته له العناية الالهية من الكمال اللائق به .. راجع نفسك ، واصغ لمناجاة سرك ، تجد فى وجدانك ميلا قويا ، وحرصا شديدا ، يدفعك الى طلب المجد ، وعلو المنزلة ، فى قلوب أبناء جنسك .. ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها ، تجد مثل ذلك فى كليتها كما هو فى آحادها ، تبتغى رفعة المكانة فى نفوس الامم سواها

ذلك أمر فطرى جبل الله عليه طبيعه هذا النوع منفردا ومجتمعا ، ليس من السهل على طالب المجد وعلو المكانة أن يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقى فى الوصول اليه وعرا فى السبل ، وعقبات تصد عن المسير ، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولاينقص ميله .. يقطع شعابا ، ويعانى صعابا ،

حتى يرقى ذروة المجد ، ويتسنم شاهق العزة ، ولو قام فى وجهه مانع عن الاسترسال فى مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر ، كأنما يتقلب على الرمضاء

ولو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر ، ونسب كل عمل الى غاية العامل منه ، رأى أن معظمها فى طلب الكرامة وعلو المقام .. كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئا مذكورا بالنسبة لما يتعلق بشئون الشرف ، هذه خلة ثابتة فى الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من ارباب المهن الى أصحاب الامر والنهى ، كل ينافس أهل طبقته فى أسباب الكرامة بينهم ، ويأنف من ضعته فيهم ، ويحرص على ما يحله من قلوبهم محل الاعتبار ، حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم ، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل فى طبقة أخرى ، ونافس أهلها فى الجاه ، ولا يزال يتبع سيره ما دام حيا يخطر فى بسيط الارض

ذلك لان الكمال الانسانى ليس له حد ، ولا تحده نهاية ، وليس فى استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حدا ليست بعده غاية

سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الإنسان ، وماذا ملكت من اهوائه ؟ يعده ثمرة حياته وغاية وجوده ، حتى أنه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه (١) ، أو عند مسه والخوف من سلبه .. أرأيت أن فقيرا ذا أسمال لايؤبه له ، اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بعلة تهينه ، أو قذفة تشينه ، يغلبه الغضب

---

(١) هذا مصداق قول حافظ ابراهيم

سعيت الى أن كدت انتعل الدما وعدت وما أعقبت الا التندما
سلام على الدنيا سلام مودع راى فى ظلام القبر انسا ومغنما

للدفاع عن المنزلة التى هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضى به الى الموت ، وان القـــذف او الاهانة ما نقصت شيئا من طعامه ولا شرابه ، ولا خشنت مضجعه فى مبيته

آلاف مؤلفة من الناس فى الاجيال المختلفة والاجناس المتنوعة ألقوا بأنفســهم الى المهالك ، وماتوا دفاعا عن الشرف أو طلبا للكرامة والمجد ، جل شــأن الله لا يهنأ للانسان طعام ولا شراب ، ولا يلين له مضجع الا أن يلحظ فيه أن ما نال منه أعلى مما نال سواه ، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالتقدم فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة ، فما ظنك بسائر اللذائذ . كم يعانى الانســان من التعب البدنى ، وكم يقاسى من مشاق الاســفار ، وكم يخاطر بروحه فى اقتحام الحروب والمكافحات ، وكم يتحمل فى الانقطاع عن اللذات ، مع التمكن منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخارا أو ليحفظ ما أتاه الله منه

ما أجل عناية الله بالانسان ، لايعيش الا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل لذة دون الشرف فهى وسيلة اليه ، بل الحياة الدنيا هى السبيل الوعر يسلكهاالحى الىمايستطيع من المجد ، وفى نهاية الاجل يفارقها قرير العين بما قارب منه اسف الفؤاد على ما قصر عنه

***

ماهو المجد الذى يسعى اليه الانسان بالالهام الالهى ، ويخوض الاخطار فى طلبه ، ويقارع الخطوب فى تحصيله .. هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد ، وتذعن له بالاعتلاء ، وتلقى اليه قياد الطاعة .. يكون هذا له ولكل من يدخل فى نسبته اليه من ذوى قرابته وعشيرته وسائر

أمته ، فتنفذ كلمته اليه وكلمة المتصلين به ، والملتحمين معه فى شئون من سواهم وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الاوصاب لتحصيل ذلك الشأن فى هذه الحياة الاولى ، فما كان يحسبه طالب المجد عائدا الى نفسه بالمنفعة يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بنى جلدته أجمعين

واها !. تلك حكمة بالغة .. اذا نال الواحد من الامة مطلبه من المجد ، نالت الامة حظها من السؤدد .. نعم وهل نال ماناله الا بمعونة سائر الاحاد منها « ذلك تقدير العزيز العليم »

ماذا يستطيع المجاهد وحده ، وماذا يكسبه من سعيه .. ان لم يكن له أعضاد من بنى قبيلته . فمن كان همه أن يصعد الى عرش العزة ، ويرقى الى ذروة السيادة ، فعليه أن يهيىء نفسه والمنتمين اليه لتحصيل كل مايعد فى العالم الانسانى فضيلة وكمالا

ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطرى والالهام الالهى .. وما اشد ماتحمل النفوس فى قضاء بعض الوطر مما يتصل به . وما أعظم الحامل للانفس على تجشم المصاعب لنيل ماتميل اليه من هذا الامر الرفيع . ماهذا الباعث الشريف الذى يسهل على الارواح كل صعب ويقرب كل بعيد ، ويصغر كل عظيم ، ويلين كل خشن ، ويسليها عن جميع الآلام ، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة ، فضلا عن بذل كل نفيس ، والسماح بكل عزيز .. هذا الباعث الجليل ، وهذا الموجب الفعال هو الامل

الامل ضياء ساطع فى ظلام الخطوب ، ومرشد حاذق فى بهماء الكروب ، وعلم هاد فى مجاهيل المشكلات ، وحاكم

قاهر للعزائم اذا عراها فتور ، ومستفز للهمم ان عرض لها سكون .. ليس الامل هو الامنية والتشهى اللذين يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى ، ويعبر عنهما : بليت لى كذا من المال ، وكذا من الفضل ، مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو بما يبعد عن المرغوب ، كأن صاحبهما يروم أن يبدل الله سنته فى سير الانسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة ، فيسوق اليه ما يهجس بخاطره دون أن يصيب تعبا أو يلاقى مشقة .. انما الامل رجاء يتبعه عمل ، ويصحبه حمل النفس على المكاره ، وعرك لها فى المشاق والمتاعب ، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد ، وتهوين كل ملم يعرض لها فى سبيل الغرض من الحياة ، حتى يرسخ فى مداركها ان الحياة لغو اذا لم تغذ بنيل الارب ، فيكون بذل الروح اول خطوة يخطوها القاصد فضلا عن المال الذى لا يقصد منه الا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون

وكما كان الميل للرفعة أمرا فطريا ، كذلك كان الامل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة .. غير ان ثبوتهافى فطرة عموم البشر كانداعيا للمزاحمات والممانعات ، فان كل واحد بما أودع فى جبلته يطلب الكرامة والتمكن فى قلب الاخر .. فكل طالب ومطلوب ، ولم تبلغ سعة العقل الانسانى الى درجة تعين لكل فرد من الافراد عملا تكون له به المنزلة العليا فى جميع النفوس غير ما يكون به للاخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم أمجادا شرفاء بما يأتون من أعمالهم .. ولكنهم تزاحموا فى الآمال والاهواء ، ومسالكهم ضيقة ، وطرقهم ضنكة ، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشرى ، حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ..

فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث فى الهمم ضعف واصابها انحطاط ، وحصل الفساد فى هاتين الخلتين الشريفتين : الرجاء ، وطلب المجد .. كما يحصل الفساد فى سائر الاخلاق الفاضلة بسوء التربية وربما يؤول الضعف الى اليأس والقنوط ، نعوذ بالله منهما ..!

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم ، يحكمون على انفسهم بالحطة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل ، ولا ينفرون من الاهانة والتحقير ، بل يوطنون انفسهم على قبول ما يوجه اليهم من ذلك أيا كان ، فتسلب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التى يمتاز بها الانسان عن الانعام فيرضون بما ترضى به البهائم ، ولا يهتمون الا بحاجات قبقبهم وذبذبهم (١) ، ثم ياليتهم يكونون هملا وسوائب يرعون النبات ، ويتبعون مواقع الغيث ، ولكنهم وان تركوا العمل لانفسهم فالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم ، فيكونون كالنمال (٢) الحمالة لا تستفيدمما تحمل شيئا ، وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح .. فيعالجون العمل فى الفلاحة والصناعة وغيرهما من الاعمال الشاقة ، ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفسه ، ثم لا ينالون مما يعملون شيئا .. ثمرات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهممهم .. هذا الذى يتجشمه الذليل فى ذلة من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضا منه فى طلب العزة لاصاب حظه منها ، بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم

---

(١) القبقب : البطن والذبذب اهداب الثوب التى تعلق للزينة . والمعنى لا يهتمون الا بالطعام والشراب والزينة

(٢) من انواع النمل نوع وظيفته أن يحمل الطعام لغيره من النمل ولا يستفيد مما يحمل

ادنى من درجة الحيوانات العاملة ، فان السائدين يشعرون بحكم البداهة ، ان هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانية ورضوا لها بما دون حقها ، بل بما لا يصح أن يكون من شأنها ، وكفروا بنعمة الله فى تكوينهم على الشكل الانسانى وايداعهم ما أودع فى افراد الانسان ، فيعاملهم أولئك السادة بما لا يعاملون بهما يقتنون من الحيوانات ، ولنا على ذلك شاهد العيان فى الامم التى أدركها اليأس وسقطت فى أيدى الاجانب ..!

ونظن انه يوجد اقوام آخرون سامهم سادتهم فىالزمن السابق ، ويسومونهم الان ما تسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا

***

عجبا ، كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحي أثر الفطرة ؟.. كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟.. وكيف تقنط حتى لا يكون لهـا أمل ؟.. والامل وحب الكرامة طبيعيان فى الانسان .. بعد امعان النظر نجد السبب فى ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله انما تصدر عن قدرته وارادته بالاستقلال ، وأن قوته هى سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة او تصده بالقهر.. فاذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه رجع الى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فرآها واهنة ، فيعترف بوهنه ، ويسكن الى عجزه ، فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل اعتقادا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته ، ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع فيقطع الامل فيقع فى الشقاء الابدى

أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبرا عظيم القدرة تخضع

كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الاعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء ، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلة القنوط ، فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة ، فيركن اليها فى أعماله ، ولا يجد اليأس الى نفسه طريقا .. فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا في مدافعتها ، معتمدا على ان قدرة الله اعظم منها ، وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب ، فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة ، لاعتقاده ان في قدرة مدبر الكون ان يقهر الاعزاء ، ويلقى قيادهم الى الاذلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء من نواصى الاقوياء .. وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار ، فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعى لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة فى الاولى والآخرة

وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته ان يقنط وييأس ، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقه التى لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين : « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » وبما حكى من قول نبيه ابراهيم : « ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر ، ومن أين يطرق اليأس قلبا عقد على الايمان بالله وقدرته الكاملة

لهذا نقول أن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله ، وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، أن يقنطوا من رحمة ربهم فى اعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم

ايمانهم أن يرضخوا للذل ، ويرضوا للضيم ، ويتقاعدوا عن اعلاء كلمتهم ، وهم الى الان محفوظون مما ابتلى به كثير من الامم ، فان لهم ملوكا عظاما ، ولا يزال فى ايديهم ملك عظيم على بسيط الارض ، وان من الحق أن نقول : ان أبواب رحمة الله مفتحة لديهم ، وماعليهم سوى أن يلجوها .. وأن روح الله نافحة عليهم ، ومايلزمهم سوى أن يستنشقوها .. والفرص دائما تمد أيديها اليهم تطلب انهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الاولى والصعود الى مقامهم الاول الا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من اعزاز دينهم .. وذلك أيسر مايكون عليهم ، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم

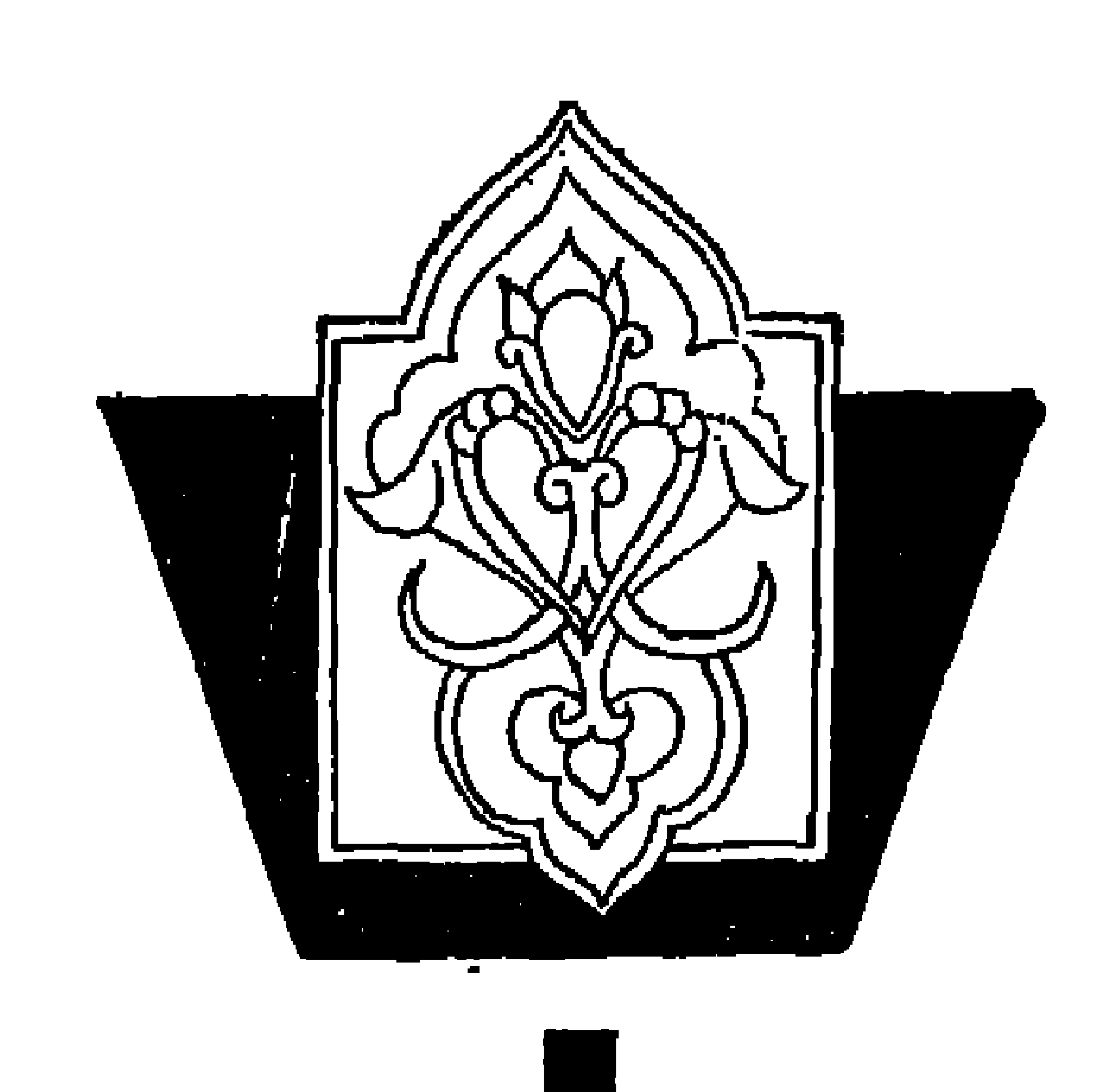
فأى موجب لليأس ، وأى داع للقنوط ، وبين ايديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ، وهل توجد واسطة بين الرشد والغى (فماذا بعد الحق الا الضلال) هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟

أيرضون بالعبودية للاجانب بعد تلك السيادة العليا .. ماذا يبتغون من الحياة ان كانت فى ذل واهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ ايطمئنون وهم بين اجنبى حاكم ، وبغيض شامت ، ومقبح غبى ، ومشنع دنى ، ومعير خسيس ، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن محالا عليهم أن يصيروا أمةفى عداد الامم ، ألم ينسلخ الانسان عن كل خاصة انسانية .. كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات ؟.. أينسون أنهم كانوا فى الارض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ولا عفت الاثار ،

ولا أضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الارض (١)

ان كان للعامة عذر فى الغفلة عما أوجب الله عليهم ، فأى عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون فى علومه .. لم لايسعون فى توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد فى جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لاصلاح مافسد من ذات بينهم ؟ لم لا يأتون على مافى الطاقة لتقوية آمال المسلمين ، وتذكيرهم بوعود الله التى لا تخلف لمن صدق فى طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم ؟

بلى ان قوما شرح الله صدورهم للايمان قاموا بهذا الامر فى مواقع مختلفة من الارض ، يجمع التواصل بينها عقدة واحدة ، الا أن أملنا فى بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بمعاضدتهم ليتمكن الجميع من نصر الله « وأن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »



(١) بمثل هذه العبارات وبمثل هذا الايمان القوى كان الاستاذ الامام يهيب بالمسلمين أن ينشطوا من خمولهم وان يسعوا الى المجد

الوحدة والقوة

« أفلم يســـــيروا فى الارض فتكون لهــم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

« قرآن كريم »

أهلك الله شعوبا ، وأباد قبـــائل ، ودمر بلادا .. ولا يزال عدل الله يبدل قومـــا بقوم ، ويأتى لكل حين بأناس آخرين .. حكيم سبقت رحمته لغضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سببا « ولا يظلم ربك أحدا »

وليست أفعاله جزافا ، ولا يصدر عنه شىء عبثا ، أمر الله عباده بالسير فى الارض « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ليريهم قضـــاءه الحق وحكمه العدل ، فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الاخرة

من كان له قلب يعقل ، وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية انقلاب الامم ، وخاض فى تواريخ الاجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله علينـــا فى كتابه المنزل ، يحكم حكما لايخالطه ريب ، بأنه ماحاق

السوء بأمة ومانزلت بها نازلة البلاء ، ومامسها الضرفى شيء الا وكانت هى الظالمة لنفسها ، بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرماته ، ونبذت أوامره المعادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حب الاهواء والشهوات

كما أن الأغذية والادوية ، واختلاف الفصول والاهوية ، أثرا ظاهرا فى الامزجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله ان يكون لكل عمل من الاعمال الانسانية ، ولكل طور من أطوار البشر ، أثر فى الهيئة الاجتماعية .. ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود ، وتقرير الاحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز النفع من الضر ، فأرسل الرسل ، وأنزل الكتب .. فمن خالف الاوامر الالهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزى الدنيا .وعذاب الآخرة

ان تأثير الفواعل الكونية فى أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر .. أما تأثير أحوال بنى الانسان فى هيئة اجتماعهم ، فيسهل سره لكل ذى ادراك ، ان لم تكن عين بصيرته عمياء

ألم تر ان الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة والاتصال بصلة الالفة فى المنافع الكافية سببا للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الابد فى الآخرة ، وجعل التنازع والتغابن علة للضعف ، وداعيا للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، ومهيأ لوقوع المتنازعين فى مخالب المعاديات من الامم .. فمن نظر فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ، ولم يكن مصابا بمرض القلب ، وعمى

البصيرة ، أدرك سر امر الله فى قوله « واعتصموا بحبل الله جميعا » وسر نهيه فى قوله « ولاتفرقوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » أى جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم

ان الله تعالى يجعل الركون الى من لا يصلح الركون اليه ، والثقة بمن لا تنبغى الثقة به ، سببا فى اختلاف الامر وفساد الحال .. فمن وثق فى عماله بمن ليس منه فى شيء ، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ، ولا تصله به رابطة صحيحة ، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد فى جلب منفعته ، ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ، ويسوء مآله ، وان كان ملكا ضاع ملكه أو اميرا بطل أمره . والحوادث عاهدة (1) ، وأحوال المغرورين ناطقة .. فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى فى قوله « لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق » وقوله « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر » وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة الى مصالح الدارين

لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا ، ويعد لها مآلا صالحا فى الاخرة . وهو انسان له قلب واحد ، لو جعل معظم همه فى شيء فاته

---

(1) عاهدة : حافظة وشاهدة

سائر الاشياء .. فلـــو توغل فى الشـــهوات ، وبالغ فى الترف ، وبطر فيما أنعم الله عليه ، فقد أغفل فرائضه ، وأضربنفسه، وحرم من منافعه، وحل بهمن عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيـــا والآخرة معا ، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه ، وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته ، او يواطنه فى مدينته .

وهذه آثار المترفين فى كل أمة تنطق بما لا يعجم الا على أذن صـــماء ، وتشـــهد بما لا يخفى الا على بصـــيرة كمهاء (١) .. وان فيماقص الله علينا من أحوال المترفين، لاكبر عبرة « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين، حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعـــذاب اذا هم يجـــأرون ، لا تجأروا اليوم انـــكم منا لا تنصرون ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما اوجب الله عليهـــم « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى »

***

ما أوتى الانسان من العلم الا قليلا .. لا يمكن لانسان وحـــده ان يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا ان يطلع على منابع فوائده ليكسبها ، او يكشف مكامن مضاره فيتقيها .. خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .. خلقنا محتاجين للعون ، مضطرين للصبر ، وهدانا ربنا للتعاون والتناصر

---

(١) مؤنث اكمه الاعمى ، من كمه اذا عمى

هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمة ، وألقى اليه بزمام مصالحه التامة تحت ارادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع ، لا ريب ان مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء ، وهو اشد افتقارا الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته ، وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه .. وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليما وارشادا فقال «وشاورهم فى الامر » وقال فيما امتدح به المؤمنين « وأمرهم شورى بينهم » أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم ، اى بصيرة لا تهتدى الى هذا المنهج القويم : « أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين »

ان وازع البلاد والقائم على الحكم لو ألمح لمحة الى نفسه لرأى ان بلاده فى كل وقت معرضة لاطماع الطامعين ، وان الحرص المودع فى طباع البشر ، يحرك جيرانه كل آن للسطو على بلاده ليذلوا قومه ، ويستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدهم ، ويمنحوها أبناء جلدتهم .. فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله، والحكام النائبين عنه فى ايالاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأى ، ومن بهم قوام الدولة ، ان يستعدوا لدفع طوارىء العدوان ، ورفع نوازل الغارات الاجنبية .. فلو فرطوا فى الاعداد لوازم الدفاع ، او تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الاطماع ، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ، ويقوى شوكتهم ـ بأى وجه كان ، ومن اى نوع كان ـ فقد عرضوا بلادهم للهلاك ، والقوا بأنفسهم فى مهاوى الاخطار

هذا مما يفهمه الابله والحكيم ، ويصل اليه ادراك الجاهل والعليم ، وهو سر الافصاح والابهام فى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ..

أمر بإعداد القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة .. على حسب ما يقتضيه الزمان ، وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم .. هذا امـــر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل ((فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)) ..

اعطاء كل ذى حق حقه ، ووضع الاشياء فى مواضعها ، وتفويض مهام الحكم للقادرين على أدائهـــا ، مما يوجب صيانة الوطن ، وقوة السلطان ، ويشيد بنـاء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ النظام من الخلل ، ويشفى نفوس الامة من العلل .. هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التى قامت بهـا السموات والارض ،

وثبت بها نظام كل موجود ، وهو العـدل المأمور به على لســـان الشرع فى قوله تعالى « ان الله يأمركم بالعـدل والاحسان » كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جـزء من أجـــزاء العـــالم يوجب فناءه واضمحلاله ، كذلك الجور فى الجمعيـات البشرية يســـبب دمارها .. لهـــذا حثت الاوامر الالهيــة على العدل ، وكثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور

والحاكم أول من توجه اليه الاوامر والنواهى فى هذا الباب .. العدل هو الحكمــة التى امتـــن الله بها عـــلى عباده ، وقرنهـــا بالخير الكثير فقال : « ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا » .. هى مظهــــــر من اجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير

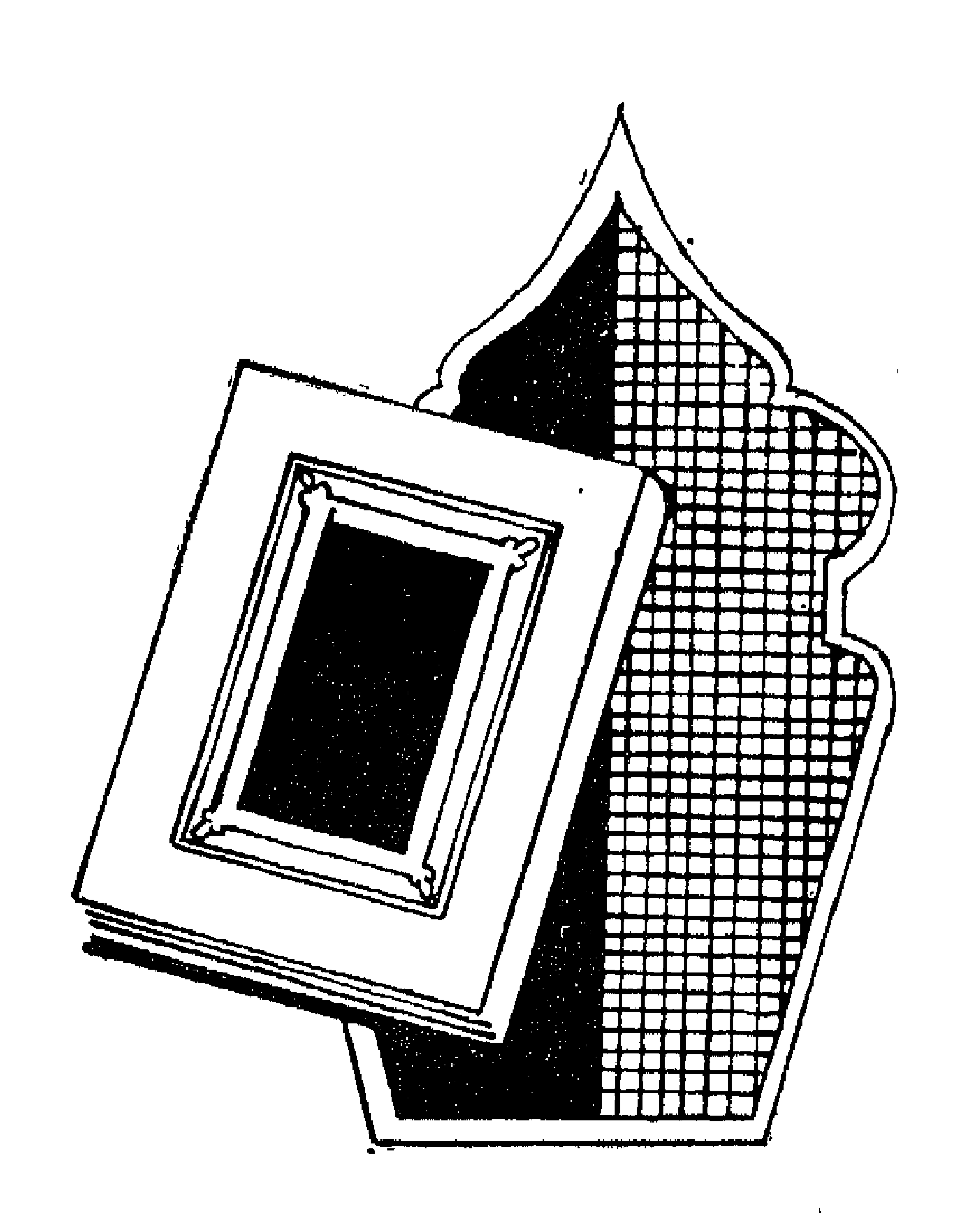
ممن سار فى الارض ، وتتبع تواريخ الامـــم ، وكان بصير القلب ، علم أنه ما انهدم بناء ملك ، ولا انقلب عرش مجد ، الا لشقاق واختلاف ، او ثقـــة بمن لا يوثق به ، وتخلل العنصر الاجنبى ، او اســـتبداد فى الرأى ، واستنكاف من المشورة ، واهمال فى أعداد القوة ، والدفاع عن الحوزة ،

او تفويض الاعمال لمن لا يحسن اداءها ، ووضع الاشياء في غير مواضعها .. فيكون جور في الحكم ، واختـــلاف في النظم ، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحصل غضبه بالخاطئين ، وهو أحكم الحاكمين

لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التي المت بالبلاد الاسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ،ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشـــدنا اليه .. وبيننا من اتبع أهواء الانفس وخطوات الشيطان « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغـيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم » فعلى العلماء الراسخين وهــم روح الامة ، وقواد الملة المحمدية ، ان يهتموا بتنبيه الغافلين عما أوجب الله ، وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين،ويعلموا الجاهل ويزعجوا نفس الذاهل ، ويذكروا الجميع بما انعم الله به على آبائهم ، وينبهوهم الى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجـوع الى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ورفض كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سيئة ،لاتنطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الامم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عنـــدما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامره « فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون »

على العلماء ان يزيلوا اليأس بتذكير وعـد الله ووعـده الحق في قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنـــوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهـــم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا »

هذه وظيفة العلمــــاء الراسخين ، وما هم بقليل بين المسلمين .. ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله اليهم ، ووكــل الى ذمتهم ، وهم أمنــــاء الدين وحملة الشرع ، ورافعو لواء الاسلام ، وأوصـــــياء الله عــلى المؤمنين أعانهم الله على خـــير أعمـــالهم ، ونفع بهـم المؤمنين بارشادهم



الفضائل مناط الوحدة

« وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين »

« قرآن كريم »

قالوا : للانسان كمال مفروض عليه أن يسعى اليه ، وقالوا انه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ؛ وقالوا كماله فى استيفاء ما يمكن من الفضائل ، ونقصه فى التلوث برذيلة من الرذائل .. فما هى الفضائل وما هى الرذائل ؟

الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها .. فالسخيان لا يتشاحنان ولا يتنازعان فى التعامل ، فان من سجية كل منهما البذل فى الحق ، والمنع اذا إقتضاه الحق ، فكل يعرف حده فيقف عنده ، فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الاعمال المالية .. والاعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات ، فان من خلق كل منهم التجافى عن الشهوة ، وفى طبيعته الايثار بالرغائب .. وهكذا اذا استقريت جميع ما عده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها فى متعلق الاثر الناشى عن تلك الفضيلة ،

فاذا اجتمعت الفضائل او غلبت فى شخصين مالت نفساهما الى الاتحاد والالتئام فى جميع الاعمال والمقاصد أو جلها ، ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة ، وعلى هذا النحو يكون الامر فى الاشخاص الكثيرة

فالفضائل هى مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد ، تميل بكل منهما الى الاخر الى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم ، يتحرك بارادة واحدة ، ويطلب فى حركته غاية واحدة .. مجموع الفضائل هو العدل فى جميع الاعمال ، فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حده فى عمله لا يتجاوزه بما يمس حقا للآخر فيه يكون التكافؤ والتوازر .. لكل شخص من افراد الانسان وجود خاص به ، وأودعت فيه العناية الالهية من القوى ما به يحفظ وجوده ، وما به التناسل لبقاء النوع ، وهو فى هذا يساوى سائر أفراد الحيوان .. لكن قضت حكمة الله ان يكون الانسان ممتازا عن بقية الانواع الحيوانية بكون آخر ، ووجود أرقى وأعلى ، وهو كون الاجتماع ، حتى يتألف من أفراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد ، والافراد فيها كأعضاء تختلف فى الوظائف والاشكال ، وانما كل يؤدى عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلى كما اودع الله فى اعضاء ابداننا وبنيتنا الشخصية

والفضائل فى المجتمع الانسانى كقوة الحياة المستكملة فى كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الابصار ، والعين بها الابصار وتمييز الالوان والاشكال ، وليس من وظائفها البطش .. والكل حى بحياة واحدة ،

وان شئت قلت الفضائل فى عالم الانسان كالجاذبية العامة فى العالم الكبير ، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن فى الجاذبية ثبت كل كوكب فى مركزه ، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب وانتظم بها سيره فى مداره الخاص بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله فى وجود الاكوان وبقائها .. كذلك شأن الفضائل فى الاجتماع الانسانى ، بها يحفظ الله الوجود الشخصى الى الاجل المحدود ويثبت البقاء النوعى الى أن يأتى أمر الله

أى أمة يكون الواضع فيها والرافع ، والحارس والوازع ، والجالب والدافع ، وجميع من يدير امورها ، ويسوسها فى شئونها ، انما هم افراد منها من هاماتها او من لهازمها (١) ، ويكون كل واحد منها قائما بحق الكل ، ولا يختار مقصدا يعكس مقصد الكل ، ولا يسعى الى غاية تميل به من غاية الكل ، ولا يهمل عملا يتعلق بالامة حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا تزعزعه العواصف ولا تدكه الزلازل ، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة ، تحفظ بها موقعها ، وتدفع بها عن شرفها ومجدها ، وترد غارة المغيرين عليها ، فهى الامة التى سادت فيها الفضائل ، واستعلت فيها مكارم الاخلاق

ان امة هذا شأنها لا يتخالف افرادها الا للتآلف ، ولا يتغايرون الا للاتحاد ، فمثلهم فى اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة ، يتفارقان فى مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط .. ومثالهم فى تغاير مأخذهم لجلب منافعهم كجاذبى طرفى خيطة واحدة (حبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوتين ، ففى

---

(١) الاعلياء والاوساط، بل سائر الاطراف

جذب أحدهما لصـاحبه ابعاد لنفسـه عنه من وجه ، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر .. فلا يفترقان ولا يتباينان ، ولا تفنى منفعة أحدهما فى منفعة الآخر .. اما أن مسالك الافراد من مثل هذه الامة بما منحوه من الارتباط بينهـم كأنصاف دائرة مركزها حيـاة الامة وعظمتها ، ولايخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية ، وانهم فى جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه

يرى كل واحد منهم ان ما تبتهج به النفوس البشرية وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة ، انما يمكن اذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا فيسعى جهده لابلاغ كل واحد من الامة اقصى ما يؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله .. فلا يهمل ولا يخون فى الدفاع عن فرد من أفرادها ، فضلا عن هيئتها العامة .. والا فقد خان نفسه ، لانه ابطل آلة من آلات عمله ، وقطع سببا من أسباب غايته .. ولا يحتقر واحدا من الآحاد ، ولا يزدرى بعمله ، ويحسب الشخص من الامة وان كان صغيراً بمنزلة مسمار صغير فى آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه

عليك أن تنظر فى حقائق الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الاثر الذى بيناه : التعقل ، والتروى ، وانطلاق الفكر من قيود الاوهام ، والعفة ، والسخاء ، والقناعة ، والدماثة ، والوقار ، والتواضع ، وعظم الهمة ، والصبر ، والحلم ، والشجاعة ، والايثار ، والنجدة ، والسماحة ، والصدق ، والوفاء ، والامانة ، وسلامة الصدر من الحقد والحسد ، والعفو ، والرفق ، والمروءة والحمية ، وحب العدالة والشفقة

الا ترى لو عمت هذه الصفات الجليلة أمة من الامم

او غلبت فى افرادها لا يكون بينها سوى الاتحاد والالتئام التام ؟

هل يوجد مثار للخلاف والتنافر بين عاقلين حرين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين ؟ أما والله لو نفخت نسمة من ارواح هذه الفضائل على ارض قوم وكانت مواتا لاحيتها ، او قفرا لانبتتها ، او جدبا لامطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها ، ولأقامت لها من الوحدة سياجا لا يخرق ، وحرزا منيعا لا يهتك ، وان أولى الامم بأن تبلغ الكمال فى هذه السجايا الشريفة امة قال نبيهم : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .. الفضيلة حياة الامم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة ، وتحفظها من الانحلال المؤدى الى الزوال « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »

***

وأما الرذائل فهى كيفيات خبيثة تعرض للأنفس ، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة « قلة الحياء » والبذاء « التطاول على الاعراض بما لا تقتضيه الحشمة والادب من الكلام » والسفه ، والبله ، والطيش ، والتهور ، والجبن ، والدناءة ، والجزع ، والحقد ، والحسد ، والكبرياء ، والعجب ، واللجاج ، والسخرية ، والغدر ، والخيانة ، والكذب ، والنفاق .. فأى صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء ، وذهبت بهما مذاهب الخلاف الى حيث لا يبقى أمل فى الوفاق ، فان طبيعة كل واحدة منها اما مجاوزة الحدود فى التعدى على الحقوق واما السقوط الى ما لا يمكن معه للشخص أداء الواجب عليه لمن

يشاركه فى الجنسية ، أو الدين ، أو القبيلة ، أو العشيرة ، او بأى نوع من انواع التعامل .. والانسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حقا منها ، وان شئت فتخيل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين « كل يمنع الآخر حقه » شرهين حاقدين حاسدين متكبرين « كل لا يستحسن الا فعل نفسه » لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين ، هل يمكن أن يجمعهما مقصد أو توحد بينهما غاية ، أليس كل وصف على حدته قاضيا بانتباذ كل من صاحبه ؟..

هذه الرذائل اذا فشت فى أمة نقضت بناءها ، ونثرت أعضاءها ، وبددتها شذر (١) مذر .. واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الامة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها فى أعمال الحياة بالقسر ، فان حاجاتهم فى المعيشة طالبة للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الاوصاف ، فلا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة

هذه صفات اذا رسخت فى نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديدا ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى .. تراهم أعزة بعضهم على بعض ، أذلة للأجنبى عنهم ، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم ، ويفتخرون بالانتماء اليهم .. يمهدون السبل للغالبين الى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من احشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا ، وكل جليل منهم حقيرا .. اذا نطق أجنبى بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ونفائس

---

(١) تفرقوا شذر مذر بفتح الشين والميم ، وكسرهما أى ذهبوا كل مذهب من شذر النظم فصله وفرقه بالخرز ، ومذر الشىء فرقه

الحكم ، واذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الاسرار عدوه من سقط المتاع ، وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم : ليس فى الامكان أن يكون منا عارف ، ومن المحال ان يوجد بيننا خبير

ويغلب عليهم حب الفخفخـــة والفخـــر الــكاذب ، ويتنافسون فى ســفاسف الامور ودنيـاتها ، يرتابون فى نصح الناصحين ، وان قامت على صدقهم أقطع البراهين .. يسخرون بالواعظين ، وان كانوا فى طلب خيرهم من أخلص المخلصين ، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لاعلاء شـأنهم ، وجمع كلمتهم ، ويقعدون له بكل سـبيل .. يقيمون فى طريقه العقبات ، ويهيئون له أسباب العثار ، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس اطوارهم كالبدن المصاب بالفالج الذى لا تنتظم لاعضائه حركة ، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصـــد معلوم ، فشغلت أعمالهم عن حد الضبط ، وتخرج عن قواعد الربط .. فساد طباعهم بهذه الاخلاق يجعلهم منبعا ومبعثا للضر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب ، أول ما يبــدأ بعض صاحبه قبل الاجنبى .. بل كالمبتلى بجنون مطبق ، أول ما يفتك بمربيه ومهذبه ثم يثنى بطبيبه ومن يعــالج داءه ، تكون الآحاد منهم كالامراض الاكالة من نحو الجذام والآكلة ، يمزقون الامة قطعا وجذاذات بعد ما يشوهون وجهها ويوشوشون هيئتها .. أولئك قوم يسامون فى مراعى الدنايا والخســائس لتغـلب النـذالة على ســائر أوصافهم ، فينتفخون على أبناء جلدتهم ، ويذلون لقزم الاجانب فضلا عن عليتهم

وبهذا يمكنون الذلة فى نفوسهم ، ومن دونهم ، ويطبعونها على الخضوع للغرباء ، بل الاعداء الالداء من طبقة الى

طبقة حتى تضمحل الامة وتنسخ هيئتها وتفنى فى أمة أو ملة اخرى ، سنة الله فى تبدل الدول وفناء الامم ، « وكذلك اخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد » اعاذنا الله من هذه العاقبة ، وحرس أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية

***

بقيت لنا لمحة نظر الى ما به تقتنى الفضائل ، وتمحص النفوس من الرذائل ، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد ، وتصون به أكوانها من الفساد « كل مولود يولد على الفطرة » مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأى لون ، فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه ؟ .. انى يكون لهم حظ منها ، وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ وليدهم !

يرشدنا رائد الحق الى ان الاعتدال فى أصول الاخلاق ، والتحلى بحلية الفضائل ، وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها ، انما يكون بالدين .. ولن يتم أثر الدين فى نفوس الآخذين به فيصيبوا حظا وافرا مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية الا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه ، وتثبيتها فى العقول ، ودعوة الناس الى العمل بها ، وتنبيه الغافلين عن رعايتها ، وتذكير الساهين عن هديها

أما اذا أهمل خدمة الدين وظائفهم ، أو تهاونوا فى تأدية اعمالها ، ضعف اليقين فى النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة، وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلطت الحاجات المعاشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى ، فحشدت

الى الانفس أوفاد الرذائل ، فيحق على الناس كلمة العذاب ، ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا اليه سابقا

هذه علل الخراب فى كل أمة ، لقد ظهر أثرها فى أمم لا تحصى عددا من بداية كون الانسان الى الآن .. ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الرذائل فيهم ، بعد ما بدلوا وغيروا كما فى طائفة الدهيرو (منك) من سكنة الاقطار الهندية المعروفين عند الاوروبيين بطائفة « باريا » « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم » .. فالدين هو السائق الى السعادة فى الدنيا كما يسوق اليها فى الآخرة

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين فى أقطار مختلفة من الارض ، وسلبهم تيجان عزهم ، وألقاها على هامات قوم آخرين .. واليوم ينازع طوائف أخرى ولا تخاله يتغلب عليهم ، فكشف هذا عن نوع من الضعف .. ولا يكون ناشئا الا عن شيء من الاهمال فى اتباع أوامر الشرع الاسلامى ونواهيه بحكم قول الله فى كتابه : « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقد يكون ذلك ، وربما لا ينكر الآن أن كثيرا من عامة المسلمين وان صحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد الا انهم لا ينهجون فى بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء ، وهذا مما يحدث ضعفا فى قوة الامة بقدر الميل عن جادة الاعتدال فى الفضائل والاعمال « وما اصابتكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم »

الآ ان المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن اسلافهم ، ولهم حسن الاذعان بما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبيهم يتناقلونها رواية ودراية ، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح

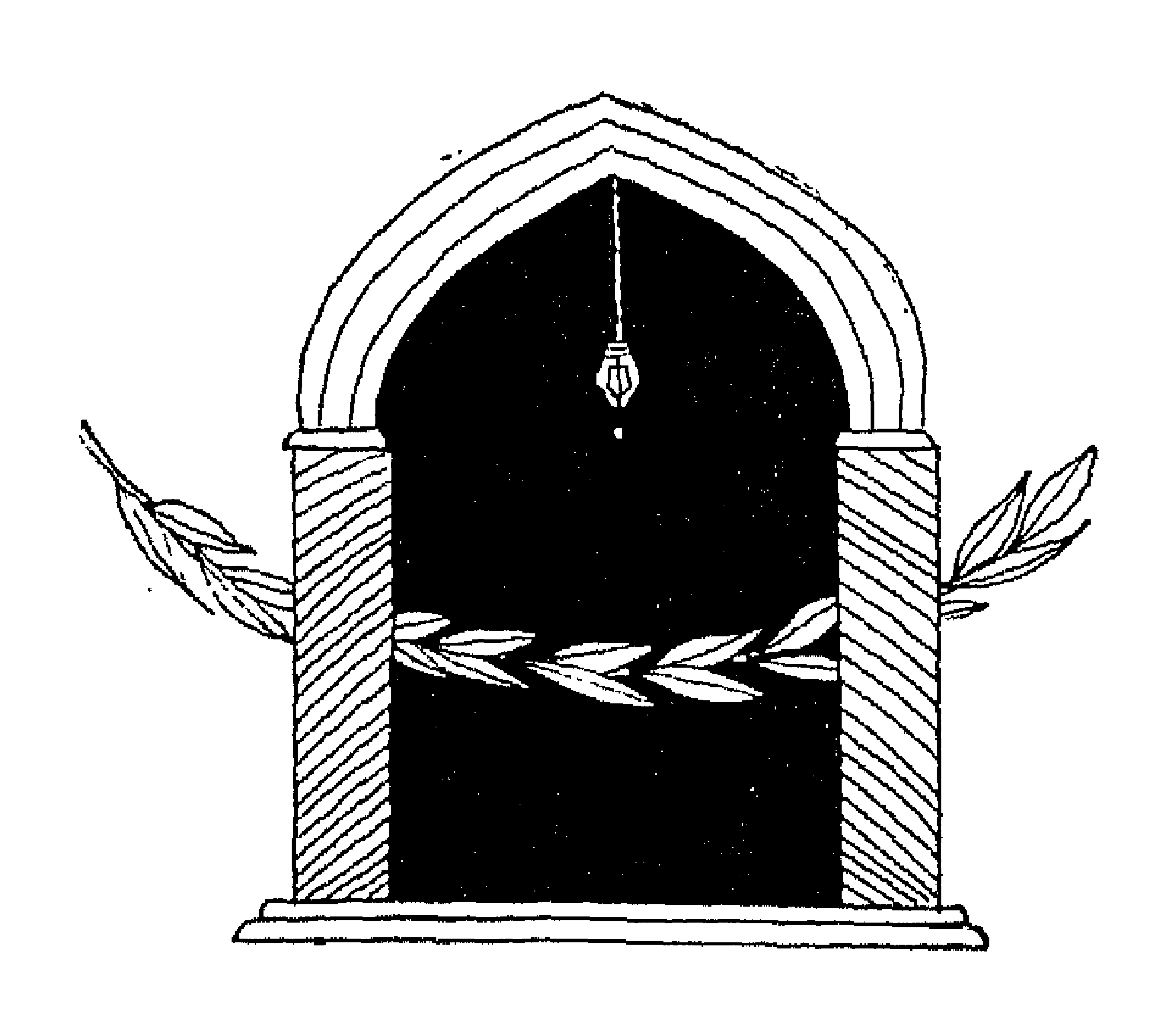
مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم ، فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف فى القوة الا عرضا لا يبقى وحالا لا يدوم

انظر نظرة انصاف الى ما أودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم ، والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله ، تجد من نفسك حكما باتا بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لاداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع ، والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه ، وهم هم فى قوله الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وبالحض الالهى المفهوم من قوله : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »

ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ، ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الاخلاق المحمودة والاعمال المبرورة ، لرأيت ان الامة الاسلامية ناشطة من عقالها ، متضافرة على اعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف ، وبيضة دينها من الصدع .. كلّ ذلك فى اقرب وقت ، ولن تكون الا صيحة واحدة فاذا هم قيام ينظرون

ولا ريب أن الراسخين فى العلم من أهل الدين الاسلامى يعلمون أن ما اصيب به المسلمون فى هذه الازمان الاخيرة ، انما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرطوا ، وليس للناس على الله حجة .. فالرجاء فى هممهم وغيرتهم وحميتهم الدينية ان يوجهوا العناية الى

رتق الفتق قبل اتساعه ، ومداواة العلة قبل استحكامها ، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ، ويحكموا بينهم روابط الاخوة والالفة كما أمر الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ، ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذى ملك افئدة البعض منهم ، ويقنعوهم انه لا ييأس من لطف الله الا الذين فى قلوبهم مرض وفى عقائدهم زيغ ، ويسيروا بهم فى سبيل يجمع كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ، ويقوى فيهم اباءة الضيم ، والنفرة من الذل ، ويحرك فيهم روح الانفة ، حتى لا تسمح نفس احدهم ان يأتى الدنية فى دينه ، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق فى قوله : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين »



الدين وسيلة الإصلاح

« سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »

« قرآن كريم »

أرأيت امة من الامم لم تكن شيئا مذكورا ، ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوى الاركان شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل ... نمت فيها أفنان العزة بعد ماثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الاداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ماكان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الامم بأن لا سعادة الا فى انتهاج منهجها وورود شريعتها ، وصارت وهى قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل

وبعد هذا كله ــ وهى بناؤها ، وانتشر منظومها ،

وتفرقت فيها الاهواء ، وانشقت العصى ، وتبدد ماكان مجتمعا ، وانحل ماكان منعقدا ، وانفصمت عرى التعاون ، وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ، ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه ، لا يلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية ، وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال الا على ايدى المتحمين معه بلحمة الامة ، وانه احوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده ، والى توفير خيرهم من تنمية رزقه ، وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخاله الناظر اليه صحوا ، وذبول يظنه المغرور زهوا .. واخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها ، وحدثت فيهم قناعة البهم (١) ، والرضا بكل حال

ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال احدهم ، أو استفزه داع من قلبه الى مايكسب ملته شرفا أو يعيد اليها مجدا ، عده هوسا وهذيانا أصيب به من ضعف فى المزاج أو خلل فى البنية ، أو حسب انه لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال واورده موارد الهلكة ، أو لصار من أقرب الاسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ، ووضع لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس ، فتغل يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعى ، وأحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل مافيه خيره وصلاحه ، وقصر نظره عن ادراك ما أتى اسلافه من قبل وتجمدت قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ماكسبوا ، وقيما على ما أورثوه لاعقابهم .. ويبلغ هذا المرض من الامة حدا يشرف بها على الهلاك ، ويطرحها على فراش

---

(١) البهم بفتح الباء اسم جنس لولد البقر والمعز واحدة بهمة . والبهيمة كل ذوات أربع

الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم

نعم رأيت كثيرا من الامم لم تكن ، ثم كانت وارتفعت، ثم انحطت وقويت ، ثم ضعفت وعزت ، ثم ذلت وصحت ثم مرضبت ، ولكن اليس لكل علة دواء ؟ .. بلى ..

وا أسفا ، ما أصعب الداء وما أعز الدواء ، وما أقل العارفين بطرق العلاج ، كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها ، وهى لم تفترق الا لان كلا عكف على شأنه .. وأستغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن اخيه ، وهو أشد أعضائه اتصالا به .. ولكنه انصرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه . نعم .. ربما التفت كل الى ماهو فى فطرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه ، وهو لايدرى من أى وجه يحصلها، ولا بأية طريقة يكون فى أمن عليها ، كيف تبعث الهمم بعد موتها ، وما ماتت الا بعد ما سكنت زمنا غير قصير الى معاليها ؟.. هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه ، خصوصا بعد مااستدبر المقصد وفى كل خطوة يظن انه على مقربة من الخطوة .. كيف يمكن تنبيه المستغرق فى نومه المبتهج بأحلامه وفى أذنه وقر وفى ملامسه خدر ؟.. هل من صيحة تقرع قلوب الاحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها وتتناءى اطرافها ، وتتباين عاداتها وطبائعها ؟ .. هل من وحدة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد اراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل ، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعر .. أيم الله انه لشيء عسير يعيى فى علاجه النطاسى ويحار فيه الحكيم البصير !؟.

هل يمكن تعيين الدواء الا بعد الوقوف على أصل

الداء واسبابه الاولى والعوارض التى طرات عليه .. ان كان المرض فى أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه الا بعد معرفة عمرها وماعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار .. أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ماعرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض، والا فان كثيرا من الامراض تتولد جراثيمها فى طور من اطـــوار العمر ثم لا تظهر الا فى طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها ..

كلا انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص عـلة لشخص واحد سنو عمره محدودة ، وعوارض حيـاته محصورة .. فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الاجـل وافرة العدد ؟ .. لهذا يندر فى اجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو ارجاع شرفها ومجدها اليهـا ، وان كان المتشبهون بهم كثيرين

وكما ان الطبيب القاصر فى الامراض البـدنية لا يزيد علاجه المرض الاشدة لولا مساعدة الاتفاق والمصادفة ، بل ربما يقضى بالمريض الى الموت .. كذلك يكون حـال الذين يقومون بتعديل أخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها ، وموجب اعتلالها ، ووجوه العلة فيها وانواعها، وما يكتنف ذلك من العادات ، ومايوجد فى افـرادها من المذاهب والاعتقادات ، وحوادثها المتتابعة على اختـلاف مواقعها من الارض ، ومكانتهـا الاولى من الرفعـــة ، ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بينالمنزلتين ، فان أخطاء طالب اصلاحها فى اكتناه شىء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء

ظن قوم فى هذه الازمان أن أمراض الامم تعالج بنشر الجرائد ، وانها تكفل انهاض الامم وتنبيه الافكاروتقويم الاخلاق .. كيف يصدق هذا الظن ؟.. وانا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لايقصدون بما يكتبون الا نجاح الامم مع التنزه عن الاغراض .. فبعد ماعم الذهول ،واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكاتبون ، لا تجد لها قارئا .. ولئن وجدت القارىء فقلما تجد الفـاهم ، والفاهم قد يحمل مايجده على غير مايراد منه لضيق فى التصور او ميـل مع الهـوى ، فلا يكون منه الا سوء التأثير .. فيشبه غذاء لايلائم الطبـع فيزيد الضرر اضعافا .. على أن الهمة اذا كانت فى درك الهبوط ، فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منهـا الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث ؟.. ان هذا وحقك لعزيز ..

ويظن قوم آخرون أن الامة المنبثة فى أقطار واسـعة من الارض ، مع تفرق أهوائها واخلادها الى مادون رتبتها بدرجات لا تحصر .. ورضـاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها ، بل لمن كان خاضعا لسيادتها مذعنا لاحكامهـا ... مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الامراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة فى كل بقعة من بقاعها ، وتكون على الطراز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعم المعارف جميع الافراد فى زمن قريب .. ومتى عمت المعارف كملت الاخـلاق واتحدت الـكلمة واجتمعت القوة

وما ابعد ما يظنون ، فان هذا العمـل العظيـم انمـا يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الامة على ما تـكره

ازمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلهـــا الصادق من بعد نائبا عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها ، ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس ـ وهى كثيرة ـ وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه ، فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغنى .. ولو كان للامة هذان لما عدت من الساقطين

فان قالوا يمكن التدرج مع الاستمرار والثبـــات ، وافقناهم على الامكان لولا مايكون من طمع الاقوياء حتى لا يدعوا لهم سبيلا لان يستنشقوا نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الاثر ؟

على انا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الامةمدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الافراد والاستزادة منها شيئا فشيئا ، فهل يصح الحكم بأن هذا التــدرج يفيدها فائدة جوهرية ، وأن مايصيبه البعض منهـــا يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بارشاد الباقى من أبناء أمته .. واعجبا ، كيف يكون هذا وان الامة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها ، وكيف بذرت بذورها ، وكيف نبتت واستوت على ســوقها وأينعت وأثمرت ، وبأى ماء سقيت ، وبأى تربة غـــذيت ، ولا وقوف لها على الغاية التى قصدت منها فى مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل اليهـا طرف من ذلك فانما يكون ظاهرا من القول لانباء عـــن الحقيقية ، فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجاة بعض الافراد بها ، وسوقها الى أذهانهم المشحونة بغيرها ،يقوم من أفكارهم ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشـــاد فى افادة اخوانهم

لعلّ الاقرب أن ناقلى تلك العلوم ، وهم من أمة هذا

شانها مع ماينعكس اليهم من الاوهام المألوفة فيها وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الامة التى تلقوا عنها علومهم ، يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها الا فسادا

ماذا يكون من اولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم .. يكون منهم ماتعطيه حالهم ، يؤدون ماتعلموه كما سمعوه ، لايراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الامة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملوه على غير وضعه .. ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه، يظنونه على مابلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغير مالا يرام الا من الكبير وبالعكس ، غير ناظرين الا الى صور ماتعلموه ولامفكرين فى استعداد من يعرض عليهم ، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها على مابها اضعافا ، وما هذا الا لكونهم ليسوا اربابها وانما هم لها نقلة وحملة

فهؤلاء الصادقون ، الا من وفقه الله منهم بعنايته الالهية ، يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه ، فيسرع اليه المرض وينتهى به الى التلف ، فتكون منزلتهم من الامة منزلة الالةالمحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخرياتالالتئام ان كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط ، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها ، وما قصدوا الا خيرا ان كانوا مخلصين ، ويوسعون بذلك الخصاصحتى تعود أبوابا ، ويباعدون مابين الصفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب فيهم تحت اسم النصحاءوعنوان

المصلحين ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير

شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والفنون والاداب ، وكل مايسمونه تمدنا .. وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لانفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟.. هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟... هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟.. هل نجوا بها من ورطات مايلجئهم اليه الاجانب بتصرفاتهم ؟.. هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟.. هل نالوا بها من المنعة مايدفع عنهم غارة الاعداء عليهم ؟.. هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الافكار حدا يميل عزائم الطامعين عنهم ؟.. هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية التى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة ، وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وان بادت فى سبيلها ، خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الامم

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ؛ ووسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب مايختارون ، ووقفوا عند هذا الحد .. ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم ، فقلبوا

أوضاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقهـا على اجود مايكون منها فى الممالك الاجنبية ، وعدوهامن مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهات .. فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينـة مما يروق منظره ولا يحمد أثره ، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ، وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتـدارهم أن يقوموا بكل ماتستدعيه تلك العـلوم الجـديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة لان مصانعهم لم تتحول الى الطراز الجديد ، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد ، وثروتهم لاتتيح لهم جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لانف الامة ، يشوه وجههـا ويحط بشأنها .. وما كان هذا الا لان تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها ..

علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهـابط الوساوس ومخازن الدسائس .. بل يكونون بما أفعمت افئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكـن على مثالهم شؤما على أبناء أمتهم ، يذلونهم ويحتقـرون امرهم ويستهينون بجميع أعمالهم ــ وان جلت ــ وان بقى فى بعض رجال الامة بقية من الشمم أو نزوع الى معالى الهمم ، أنصبوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يمحى أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير اولئـك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين ، وارباب الغـارات ، يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم .. ذلك بأنهم لا يعلمون فضـلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم

اقول ، ولا أخشى لوما ، لو كان فى البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض اراضيها الانجليز لما بارحوها أبد الابدين .. فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست الا توطيد المسالك ، والركون الى قوة مقلديهم ، واستقبال فنونهم ، فيبالغوا فى تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم . ولهذا لو طرق الاجانب أرضا لاية أمة ، ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ، ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم .. ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم .. كأنما هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى اعقابهم

***

فما الحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الاثر لو صحت الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة ـ لسوء استعمالها ـ رأينا مارأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد .. أى جهورى من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟.. اى قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الافكار الخامدة ؟. أي نفخة تبعث هذه الارواح فى اجسادها وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها ؟.. الاقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى .. الرءوس مطرقة الى ما تحت القدم ، ليس للابصار جولان الى الامام والخلف واليمين والشمال ، ولا للاسماع اصغاء ، ولا للنفوس رغبات ، وللاهواء تحكم ولا للوساوس سلطان

ماذا يصنع المشفقون على الامة والزمن قصير ؟ ..

ماذا يحاولون والاخطار محدقة بهم ؟.. بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم ؟.. لا أطيل عليك بحثا ، ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان ... ولكنى ألفت نظرك الى سبب يجمع الاسباب ووسيلة تحيط بالوسائل . ارسل فكرك الى نشأة الامة التى خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيمت بعد المنعة .. وتبين أسباب نهوضها الاول حتى تتبين مواضع الخلل وجراثيم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها ، وأنهض همم آحادها ، ولحم ما بين افرادها ، وصعد بها الى مكانة تشرف منهـا على رءوس الامم وتسوسهم - وهى فى مقامها - بدقيق حكمتها ، انما هو دين قويم الاصول ، محكم القواعد ، شامل لانواع الحكم ، باعث على الالفة ، داع الى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من ادران الخسائس ، منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل مايحتاج اليه الانسان من مبانى الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ، وينادى بمعتقديه الى جميع فروع المدنية

فان كانت هذه شرعتها ، ولها وردت ، وعنها صدرت فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها ، انما يكون من طرح تلك الاصول ونبذها ظهريا ، وحدوث بدع ليست منها فى شىء .. اقامها المعتقدون مقام الاصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد اليه الدين ، وعما اتى لاجله ، وما أعدته الحكمة الالهية له .. حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر وعبارات تقرأ ، فتكون هذه البدع حجابا بين الامة وبين الحق الذى تشعر بندائه أحيانا بين جوانحها

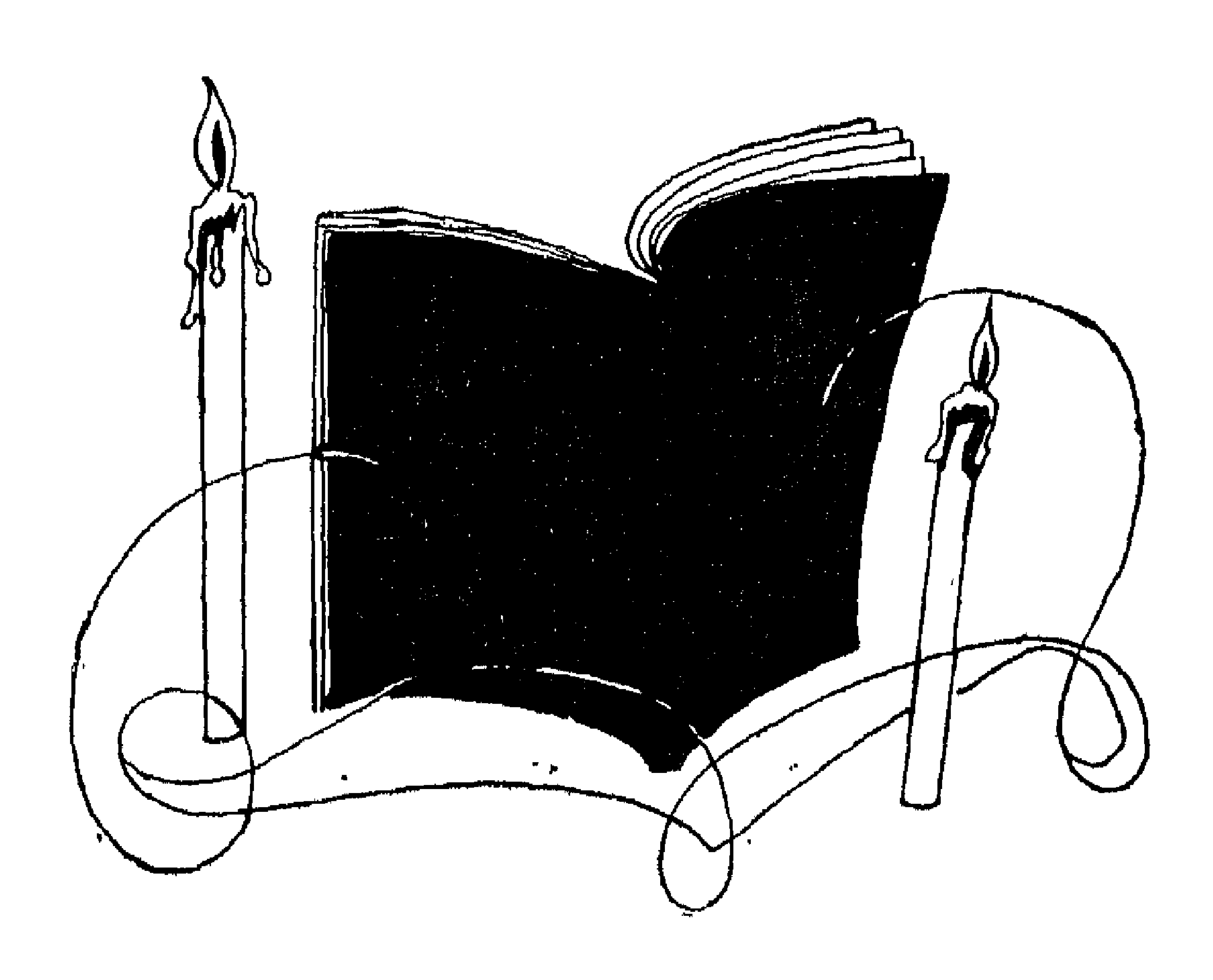
فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها الى قواعد دينها . والاخذ بأحكامه على ماكان فى بدايته ، وارشاد العـــامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق ، وايقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الارواح لشرف الامة .. ولان جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة اليه ، وفى زواياها نور خفى من محبته .. فلا يحتاج القائم باحياء الامة الالى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الارواح لاقرب وقت، فاذا قاموا لشئونهم ووضعوا اقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب اعينهم ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانسانى

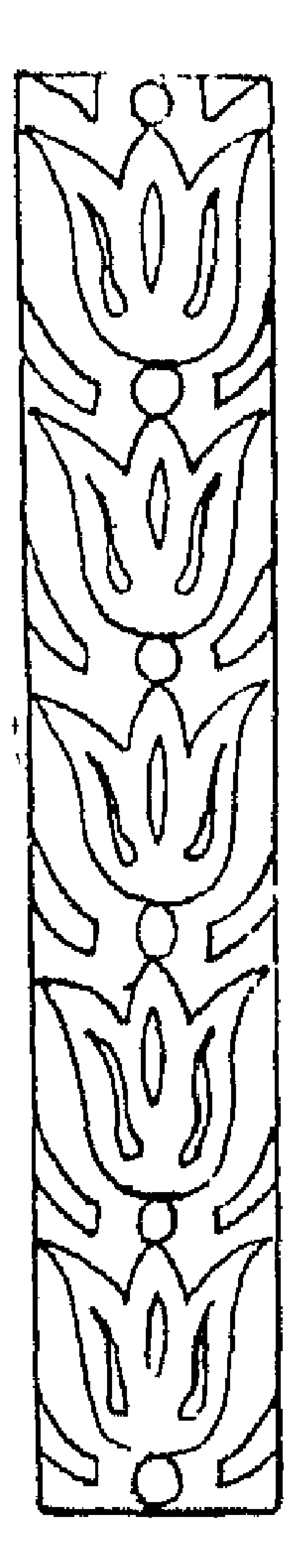
ومن طلب اصلاح أمة شأنها ماذكرنا ، بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعـــل النهاية بداية ، وانعكست التربية .. وخالف فيها نظام الوجود ،فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الامة الا نحسا ، ولا يكســبها الا تعسا

هل تعجب ايها القارىء من قولى ان الاصـــول الدينية الحقة ، المبرأة عن محدثات البدع ، تنشىء للامم قــوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذةالحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعــارف ، وتنتهى بها الى اقصى غاية فى المدنية .. ان عجبت فان عجبى من عجبك أشد

هل نسيت تاريخ الامة العربية ، وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات واتيان الدناياوالمنكرات ... حتى اذا جاءها الدين ، فوحدها ، وقواها ،وهذبها، ونور عقولها ، وقوم أخلاقها ، وسدد أحكامها ، فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدلوالانصاف

.. وبعد ان كانت عقول ابنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها ، نبهتها شريعتها وآيات دينهـــا الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ، ونقلوا الى ديارهم طب أبقراط وجالينوس وهندسة اقليدس وحكمة أفلاطـون وارسطو .. وما كانوا قبل الدين فى شىء من هـذا . وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتهـــا ومدنيتها فى التمسك بأصول الدين





الــزواج
وتعدد الزوجات
في الإســلام

حاجة الإنسان إلى الزواج

لما كان من لوازم حفظ النوع الانسانى المعرض للفناء والزوال ، التناسل والتوالد ، أودع الحق سبحانه وتعالى فى طبيعة الانسان قوة شهوية ، تدعوه الى الاقتران، وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات

غير أن الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة ذاكرة ، يستحضر بها ما شهده فى الماضى ، فيطلبه ان كان لذيذا استحصالا لمجرد اللذة ، وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه لنفسه من أن تمسه يد الغير ، ويدفع عنه ــ ما استطاع ــ كل من حاول مشاركته فيه . ثم أن هذا التمييز العقلى ، دعاه لان يطلب من الازدواج ما هو أبهى فى المنظر ، وأنعم فى الملمس ، واسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك ، فلا يسمح لاحد ــ بمقتضى الحرص الذى نسميه غيرة ــ أن يشاركه ، ويدفع ذلك بكل ما يمكنه حتى القتل والجرح

وهذا بخلاف باقى الحيوانات ، فانها وان كان ذكرها يغار على أنثاها ــ وقت طلبه لها ــ لكنها لحيظات وتنقضى ، فاذا سافدها انقضت الغيرة بانقضاء الشهوة .. والانسان لفكره ليس كذلك ، بل يلازم الحرص فى جميع أحواله خوفا على المستقبل

ومن المعلوم أن تلك القوة وهذه الخواص منتشرة بين جميع الافراد البشرية ، فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال ، وسلم من الآفات ، حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار (١) به ، ويدافع الغير عنه لما قدمناه من الاسباب . وزد على ذلك أن الانسان فى حاجة الى التعاون بالضرورة ، وهو فى فطرته لا ينظر الى التعاون مع جميع أفراد الانسان .. فلابد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص ، فلا يترك الانسان مسترسلا مع شهوته من غير ان تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها ويكفل سلامة نتيجتها والا اختل عقد نظام المجتمع الانسانى ، وفسدت أركان سيادته ، ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء وذلك من وجوه :

الاول ــ ان الانثى اذا أبيحت لكل ذكر من الرجال، وأبيح لكل أنثى أن تقترن بكل زوج ــ فى أى وقت ــ لاشتعلت نار

---

(١) كان الرجل فى كثير من القبائل فى الزمن القديم يخطف المرأة لحيازتها ، خصوصا اذا كان عدد النساء قليلا ، ثم قلت حوادث خطف النساء عندما أعدت القبائل لها عدتها فى الدفاع .. فقد كان المتعرض لها يجد صعوبات جمة تثنى عزمه . او يقع أسيرا اذا حاول خطف فتاة من الفتيات ، فيلاقى صنوف التعذيب . وقد زادت هذه القلة حينما أخذ الرجال يشترون النساء بالدراهم ، أو يحظون بزواجهن مقابل القيام بعمل يعمله الرجل لها أو لوالدها على سبيل الاجر . كما فعل النبى موسى حينما تزوج بنت النبى شعيب مقابل أن يعمل عنده ثمانى سنوات أو عشرا كما جاء فى القران على لسان النبى شعيب مخاطبا موسى : « قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على ان تأجرنى ثمانى حجج ، فان أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين »

ثم صار الرجل يدفع لوالدها ، وأهلها ثمنا لها بدلا من خطفها كأنما اشتراها له فلا ينازعه فيها منازع . وهذا هو الاصل فى الصداق ، وهو المهر ، والمهر فى اللغة العوض

الغيرة فى أفئدة كل البشر ، وسارع كل الى مدافعةمن يروم الاشتراك معه ، ولو أدى ذلك الى سفك دماء الطالبين والطالبات

الثانى ـ أن المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها ، ودرء المكروهات عن ذاتها ، خصوصا فى أزمنة الحمل ، وعقب الولادة وسنى الرضاع .. وما لم يعلم الرجل اختصاصه بها ، لا يسعى فى القيام بحاجاتها والمدافعة عن حقوقها ، فتضيع وتضيع ذريتها !

الثالث ـ وهو الاهم من هذا ، أن الرجل لا يخاطر بنفسه فى تحمل الاتعاب واقتحام الشدائد،طلبا للحصول على وسائل المعيشة ، الا اذا رأى صبية وعيالا هم عالةعليه فى أمور معيشتهم ونوال مآربهم ، يؤدى اليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته ، مؤملا فيهم انه اذا وهنت قواه ـ بعد عنايته بتربيتهم ـ اذا كبروا يعوضون عليه اتعابه السالفة ، وتسوءهم مصيبته ، ويفرحون بثروته وسعادته .. بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به ، وتعد نسبته اليه كنسبة الجسد للروح ، لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته ، فان ادخار العيش الذى هومن لوازم الانسان موقوف على عناية الزوجات والابناء ، وتوجه القلوب منهم الى مساعدة هذا الكاسب العانى .. فهو يجتهد للايجاد ، وهم يهتمون بحفظ الموجود ، وكل ذلك مفقود اذا اختلطت الانساب وجهلت الاصول .. بل لو اختلط النسب لم تتوجه همة رجل للسعى فى تربية ولد ، فيستأصل الموت افراد النوع فى أوائل أعمارهم

فظهر من ذلك أن سعادة الانسان فى حياته ، بل صيانة وجوده فى هذه الدار ، موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها ، ويضرب بها حدودا يقف كل

شخص عندها ، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة ، فيمتنع التعدى ثم يظهر منه التعلق الخصوصى بين كل شخص وزوجته وكل زوجة وبعلها .. فيسعى كل لخير من اختص به ، حيث أن سعيه لكل البشر غير ممكن ..بل هو بعيد عن الافكار البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشرى

وقد اتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الامر ، وان اختلفت مظاهره بالنسبة الى اختلاف طبائع الامم ، لما طرأ عليها من تقلبات الاجيال والامصار .. ولم تبح للرجل أية امرأة يريدها الا اذا كانت خالية عن الازواج ،وتيقن فراغها من الحمل وخلوها من جميع الموانع التى تخل بهذا الاختصاص ، وطلب العقد عليها والاجابة منها أو وليها بالقبول بمحضر جماعة من الناس تذيع هذا الامر ،ليحجم الناس عن الرغبة فيها اذا علموا أنها خصت برجل يقوم بحاجاتها ويدرأ عنها أى مكروه ، وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة ، ونهت عن ارتكاب أى أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلى الذى لا تتم سعادة العائلة الا برعاية حرمته والمحافظة على حقوقه .. كالقيام بالواجبات والحاجات لكل واحد من أفرادها ، وحسن الاقتصاد فى المعيشة ،وان ينظر كل واحد الى مصلحة العائلة نظره الى مصلحته الخاصة ، وبعبارة أظهر ليس هناك مصلحة له الا اذا كانت تجلب لعائلته وافر الرزق والتقدم ، وتنقلها من درك الشقاء الى درجات السعادة والهناء .. !

فتبين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة فى الانسان لم تكن مقصودة لذاتها ، بل هى وسيلة لحياة زوجية هانئة، وسبب لتكوين عائلة يأنس فيها الزوجان ويسعدان بتلك الرابطة المقدسة التى تنمو بها الامة ، ويحفظ بها النوع الانسانى ، وترتبط فيها العائلات بأقوى الروابط

الانسانية ، التى لولاها لاختل نظام المجتمع الانسانى

ولما كان التعاون على المصالح المعاشية ، والاتحاد والتآلف وجمع الكلمة من ثمرات الزواج ، لم يبح بالاجماع أن يقترن الرجل بأخته أو عمته أو ابنته لانه يضيق تلك الفوائد ويقلل من الثمرات ، فضلا عن كونه فى نظر الاطباء قد يوجب العقم وضعف النسل

فلذلك اوجبت الشريعة ان يكون الزواج من عائلتين ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة ، بل لابد أن يقع الاقتران من بيئتين ليجتمع العائلتان على مصلحة واحدة وتصيران بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه ، فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل ، وتتجاذب صلات المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة ، وتجعلها متجهة الى كعبة الاتحاد والائتلاف ، فيستريح الناس من ألم الشقاق ووخامة البغض والحقد .. اما العائلة الواحدة فيكفى فى ارتباطها العلاقة النسبية

هذا ما اتت به الشرائع ، ونطق به علماء الدين ، وأوضحه العقلاء فى حكمة الزواج والاقتران ، بقطع النظر عن كونه بواحدة أو بأكثر .. اقتصرنا عليه الآن ، وسنشفعه ببيان ما جاءت به شريعتنا من اباحة الزواج بأربع من النسوة ، وجواز مفارقتهن بالطلاق .. مع بيان ما كان عليه السلف الصالح فى معاشرة زوجاتهم ، وما نحن عليه الآن من سوء معاشرتهن ، وعدم العدل بينهن بدلا من المحبة وجمع الكلمة كما اوجبته الشريعة . وليس لنا غرض من ذلك سوى تبيين الحق وتوضيح الصراط المستقيم

تعدد الزوجات

أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربـــع من النسوة ، ان علم من نفسه القدرة على العدل بينهن .. والا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة . قال تعالى : « فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » فان الرجل اذا لم يستطع اعطاء كل منهن حقها ، أختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة .. اذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين افراد العائلة

والرجل اذا خص واحدة منهن دون البـاقيات ـ ولو بشيء زهيد ـ كأن يستقضيها حاجـــة فى يوم الاخرى ، امتعضت تلك الاخرى وكرهت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه الى من لا حق لها ، وتستبدل بالاتحاد النفرة وبالمحبة البغض

وقد كان النبى (ص) وجماعة الصحابة رضـــوان الله عليهم ، والخلفاء الراشدون ، والعلماء ، والصالحون من كل قرن الى هذا العهد ، يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله فى العدل بينهن ، فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، والصالحون من أمته لا يأتون حجرة احـــدى الزوجات فى نوبة الاخرى الا باذنها .. !

وقد كان النبى (ص) يطاف به وهو فى حالة المرض (١) على بيوت زوجاته ، محمولا على الاكتاف ، حفظا للعدل .. ولم يرض بالاقامة فى بيت احداهن خاصة ، فلما كان عند احدى نسائه سأل فى أى بيت أكون غدا ، فعلم نساؤه انه يسأل عن نوبة عائشة ، فأذن له فى المقام عندها مدة المرض ، فقال : « هل رضيتن » فقلن : «نعم» فلم يقم فى بيت عائشة حتى علم برضاهن

وهذا الواجب الذى حافظ عليه النبى (ص) هو الذى ينطبق على نصائحه ووصاياه ، فقد روى فى الصحيح أن آخر ما أوصى به النبى (ص) « ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه « الصلاة الصـــلاة وما ملكت أيمانكم . لا تكلفوهم مالا يطيقون .. الله الله فى النســـاء فانهن عندكم عوان — اى ضعيفات — لا يملكن لانفســهن شيئا . اخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وقال : « من كان له امرأتان فمال الى احداهما دون الاخرى — وفى رواية ولم يعدل بينهما — جاء يوم القيــامة واحد شقيه مائل . وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبى بقوله .. اللهم هذا (أى العدل فى البيــات والعطاء) جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا املك .. (يعنى الميل القلبى) وكان يقرع (٢) بينهن اذا اراد سفرا

---

(١) هذا الاذن كان فى مرض موته حين اشتد المرض عليه ، وقد كان اليوم يوم ميمونة بنت الحارث .. انما كاد يجلس النبى عندها حتى ثقل مرضه ، فدعا زوجـــاته ان يحضرن اليه ، فلما رأينه على غير ما يعهدنه فزعن الى البكاء واستبد بهن الاسى ، فاستأذنهن ان يمرض فى بيت عائشة لقربه من المسجد

(٢) نوضح هنا بايجاز لماذا تزوج النبى « ص » أكثر من أربـــع زوجات وهو مايطعن فيه خصوم الاسلام . فقد تزوج النبى « ص »

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة فى القسمة فى البيتوتة باجماع الائمة ، وفيها وفى العطاء اعنى النفقة عند غالبهم ، حتى قالوا يجب على ولى المجنون أن يطوفه على نسائه ، وقالوا لا يجوز للزوج الدخول عند احدى زوجاته فى نوبة الاخرى الا لضرورة مبيحة وقد يجوز له ان يسلم عليها من خارج الباب ، والسؤال عن حالها بدون دخول.

وصرحت كتب الفقه بأن الزوج اذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة ، فأغلقت الباب دونه وجب عليه أن يبيت بحجرتها ولا يذهب الى ضرتها الا لمانع برد او نحوه ..

وقال علماء الحنفية أن ظاهر آية «فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة » أن العدل فرض فى البيتوتة وفى الملبس والمأكل والصحبة ، لافى المجامعة ، لافرق فى ذلك بين فحل وعنين ومجبوب ومريض وصحيح . وقالوا ان العدل من حقوق الزوجية ، فهو واجب على الازواج كسائر الحقوق الواجبة شرعا ، اذ لا تفاوت بينها

وقالوا اذ لم يعدل ورفع الى القاضى وجب نهيه وزجره، فان عاد عزر بالضرب لا بالحبس ، وما ذلك الا محافظة على المقصد الاصلى من الزواج وهو التعاون فى المعيشة

خديجة بنت خويلد ، وهو فى سن الخامسة والعشرين وهى فى الاربعين وبقيت زوجته الوحيدة حتى ماتت وهو فى الخمسين من عمره ، وقد وفى لها ولم يتزوج حتى ألحت عليه سيدة مسلمة أن يتزوج . فخطب عائشة من صديقه ابى بكر الصديق وهى فى التاسعة من عمرها . ولم يبن بها الا بعد ماتجاوزت حد الصبا . وهذا ينفى مايقوله الطاعنون انه كان رجلا تسيطر عليه الشهوة !

أما سائر زوجاته فقد كان معظمهن أرامل ، ولم يبن بواحدة منهن لجمالها وانما لصلة الرحم والضن بهن عن المذلة ، او لصيانة مكانتهن العائلية والاجتماعية من الهوان ، أو للمحافظة على عقيدة الاسلام فى قلوب بعضهن ممن يفقدن أزواجهن وخاف عليهن الردة عن الاسلام اذا رجعن الى أهلهن الذين لم يكونوا من المسلمين

وحسن السلوك فيها ..

أفبعد الوعيد الشرعي وذاك الالزام الدقيق الحتمي الذي لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا ، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحققه؟. فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية ، واستحصال للذوقتية ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف .. فانا نرى أنه ان بدت لاحداهن فرصة للوشاية عند الزوج في حق الاخرى ، صرفت جهدها ما استطاعت في تنميقها واتقانها ، وتحلف بالله أنها لصادقة فيما افترت « وما هي إلا من الكاذبات » فيعتقد الرجل انها اخلصت له النصح لفرط ميله اليها ، ويوسع الاخريات ضربا مبرحا ، وسبا فظيعا ، ويسومهن طردا ونهرا من غير أن يتبين فيما ألقى اليه من الوشاية — اذ لا هداية عنده ترشده الى تمييز صحيح القول من فاسده ، ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة فتضطرم نيران الغيظ في أفئدة هؤلاء النسوة ، وتسعى كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة الواشية أو يكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل . وفضلا عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل في ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده ، فانهن دائما تتوقعن منه الطلاق ، اما من خبث أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج . وأياما كان ، فكلاهما لا يهدأ له بال ، ولا يروق له عيش .!

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد في أفئدتهن ، تزرع كل واحدة في ضمير ولدها ما يجعله من ألد الاعداء لاخوته أولاد النسوة الاخريات .. فانها دائما تمقتهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع ، وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم ، وتعدد له وجوه الامتياز .. فكل ذلك وما شابهه أن ألقى

الى الولد حال الطفولة يفعل فى نفسه فعلا لا يقوى على ازالته بعد تعقله ، فيبقى نفورا من اخيه عدوا له ، لانصيرا وظهيرا له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الاخ

وان تطاول واحد من ولد احداهن على ولد الاخرى ، وان لم يعقل ما لفظ لكونه صغيرا ، انتصب سوق العراك بين والدتيهما وأوسعت كل واحدة الاخرى بما فى وسعها من الفاظ الفحش ومستهجنات السب ، وان كن من المخدرات فى بيوت المعتبرين ، كما هو مشاهد فى كثير من الجهات خصوصا الريفية .. واذا دخل الزوج عليهن فى هذه الحالة تعسر عليه اطفاء الثورة من بينهن بحسن القول ولين الجانب اذ لا يسمعن له أمرا ، ولا يرهبهن منه الوعيد لكثرة ما وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هذه الاسباب أو غيرها ، التى أفضت الى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن او لكونه ضعيف الرأى احمق الطبع ، فتقوده تلك الاسباب الى فض هذه المشاجرات بطلاقهن جميعا ، او طلاق من هى عنده اقل منزلة فى الحب ـ ولو كانت أم أكثر أولاده ـ فتخرج من المنزل سائلة الدمع حزينة الخاطر حاملة من الاطفال عديدا، فتأوى بهم الى منزل أبيها ان كان ، ثم لايمضى عليها بضعة اشهر عنده الا تراه قد سئمها فلا تجد بدا من رد الاولاد الى أبيهم وان علمت أن زوجته الحالية تعاملهم بأسوأ مما عوملوا به من عشيرة أبيها

ولا تسل عن أم الاولاد اذا طلقت وليس لها من تأوى اليه ، فان شرح ما تعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صبيتها من الطرد والتقريع ، يئنون من الجوع ويبكون من ألم المعاملة

ولا يقال ان ذلك غير واقع ، فان الشريعة الغراء كلفت الزوج بالانفاق على مطلقته واولاده منها حتى تحسن تربيتهم ، وعلى من يقوم مقامها فى الحضانة ان خرجت من عدتها وتزوجت .. فان الزوج وان كلفته الشريعة بذلك لكن لا يذعن لاحكامها فى مثل هذا الامر الذى يكلفه نفقات كبيرة الا مكرها مجبرا

والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقها عندالحاكم الشرعى، اما لبعد مركزه فلا تقدر على الذهاب اليه ، وتترك بنيها لا يملكون شيئا مدة اسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضى الزوج ، وربما آبت اليهم حاملة صكابالتزامه بالدفع لها كل شهر ما أوجبه القاضى عليه من النفقة من غير أن تقبض ما يسد الرمق أو يذهب بالعوز ، ويرجع الزوج مصرا على عدم الوفاء بما وعد ليقينه بأن المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها الى العودة للشكاية لوهن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقتية ، أو حياء من شكاية الزوج ، فان كثيرا من أهل الارياف يعدون مطالبة المرأة بنفقتها غينا فظيعا .. فهى تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقة طلبا لما تقيم به أودها هى وبنوها ، على الشكاية التى توجب لها العار وربما لم تأت بالثمرة المقصودة

وغير خفى ان قيام المرأة الايم بهذه الاعمال الشاقة ومعاناة البلايا المتنوعة التى اقلها ابتذال ماء الوجه تؤثر فى اخلاقها فسادا وفى طباعها قبحا مما يذهب بكمالها ويؤدى الى تحقيرها عند الراغبين فى الزواج . ولربما ادت بها هذه الامور الى أن تبقى أيما مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل ، وان خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق فلا يكون فى الغالب الا اقل منزلة واصغر قدرا من بعلها السابق أو كهلا قلت رغبة النساء فيه ويمكث زمنا طويلا يقدم رجلا ويؤخر اخرى خشية على نفسه من

عائلة زوجها السالف فانها تبغض أى شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء أن فعل ذلك ، كأنمطلقها يريد أن تبقى ايما الى الممات رغبة فى نكالها واساءتها ان طلقها كارها لها

واما اذا كان طلاقها ناشئا عن حماقة الرجل لاكثاره من الحلف به ـ عند أدنى الاسباب وأضعف المقتضيات ـ كما هو كثير الوقوع الآن ، اشتد حنقه وغيرته عليها .. وتمنى لو استطاع سبيلا الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها.

وكأنى بمن يقولون ان هذهالمعاملةوتلك المباشرةلاتصدر الا من سفلة الناس وادنيائهم .. واما ذوو المقامات وأهل اليسار ، فلا نشاهد منهم شيئا من ذلك .. اذ أنهم ينفقون مالا كثيرا على مطلقاتهم واولادهم منها ، وعلى نسائهم العديدات فى بيوتهم .. فلا ضير عليهم والاكثار من الزواج الى الحد الجائز ، والطلاق اذا ارادوا .. بل هو الاجمل والاليق بهم ، اتباعا لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم « تناكحوا وتناسلوا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة » واما ما يقع من سفلة الناس ، فلا يصح أن يتخذ قاعدة للنهى عما كان عليه عمل النبى والسلف الصالح من الامة وخصوصا وآية « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » لم تنسخ بالاجماع ، فاذن يلزم العمل بمدلولها مادام القرآن

نقول فى الجواب عن هذا :

كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من الاغنياءوذوى اليسار يطردون نساءهم معاولادهن ، فتربى اولادهمعند أقوام غير عشيرتهم ، لا يعتنون بهم ولا يلتفتون اليهم .. وكثيرا ما رأينا الآباء يطردون ابناءهم ـ وهم كبارـمرضاة لنسائهم الجديدات ، ويسيئون الى النساء بما لا يستطاع

حتى انه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانيــة الا بقصد الاضرار بالاولى ، وهذا شائع كثير

وعلى فرض التسليم بأن ذوى اليسار قائمون بمـــا يلزم من النفقات ، لا يمكننا الا أن نقول ــ كما هـــو الواقع ــ ان انفاقهم على النسوة وتوفية الحقوق الزوجية من القسمة فى المبيت ليس على نسبة عادلة ، كما هـــو الواجب شرعا على الرجل لزوجاته . . فهذه النفقة تستوى مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية فاذن لا تمايز بينهم وبين الفقراء فى أن كلا قد ارتكب ما حرمته الشرائع ونهت عنه نهيا شديدا ، خصوصا وان اضرار اجتماع الزوجات عند الاغنياء اكثــر منها عنــد الفقراء كما هو الغالب

فان المراة قد تبقى فى بيت الغنى سنة او ســنتين أو ثلاثا ــ بل خمسا ــ لايقربها الزوج خشية آن تغضب عليه من يميل اليها ميلا شديدا .. وهى مع ذلك لاتستطيع ان تطلب منه ان يطلقها لخوفها على نفسها من بأســـه ، فتضطر الى فعل ما لا يليق

وبقية المفاسد التى ذكرناها ، من تربية الابناء على عداوة أخوتهم بل أبيهم أيضا موجودة عند الاغنياء واكثر منها عند الفقراء ، ولا تصح المكابرة فى انكار هذا الامر بعد مشاهدة آثاره فى غالب الجهات والنواحى ، وتطاير شره فى أكثــر البقاع من بلادنا وغيرها

تلك هى معاملة أغلب الناس عندنا من أغنياء وفقراء فى حالة التزوج بعدة نساء وكأنهم لم يفهموا حكمـــة الله فى مشروعية التعدد ، بل اتخذوه ، طريقا لصرف الشـــهوة واستحصال اللذة لاغير ، وغفلوا عن المقصد الحقيقى منه . . وهذا لا تجيزه الشريعة ولا يقبله العقل ، فالواجب عليهم

اما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة »ثم ان هذه الآية: « فأنكحوا ماطاب لكم من النساء »مقيدة بآية فان خفتم .. واما ان يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعا من العدل ، وحفظ الالفة بين الاولاد ، وحفظ النساء من الغوائل التى تؤدى بهن الى الاعمال الضارة ولا يحملونهن على الاضرار بهم وبأولادهم ، ولا يطلقونهن الا لداع ومقتضى شرعى شأن الرجال الذين يخافون الله ، ويوقرون شريعة

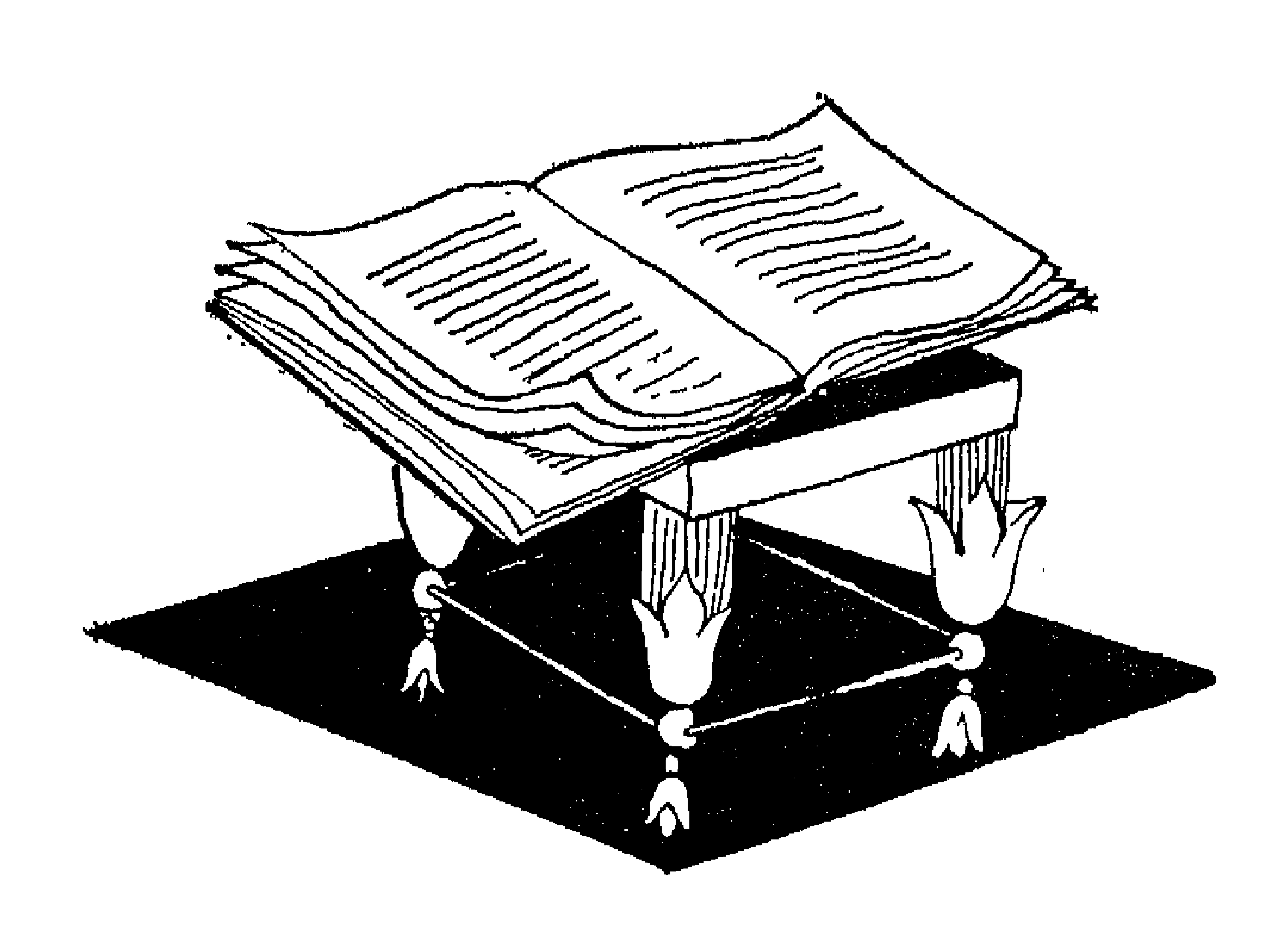
(*) بعد هذه الاسباب التى أوردها فى هذا الفصل الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده نقول :

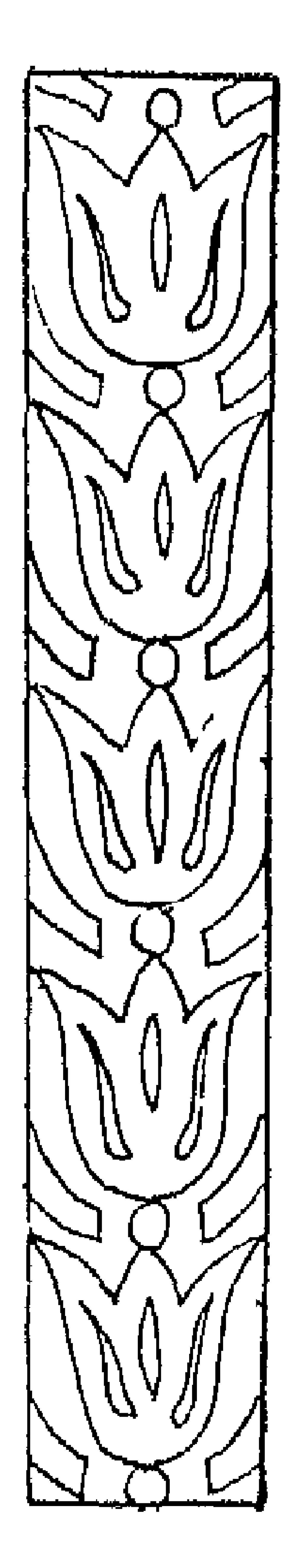
ان تعدد الزوجات ليس خاصا بشريعة الاسلام وحدها ، بل انه كان موجودا قبل ظهور الاسلام . وهو موجود حتى الان فى جميع قارات العالم . وعدد المعددين للزوجات يفوق كثيرا عدد الموحدين لهن . فهو موجود عند الفويجيين فى أميركا واستراليا ، وفى كالدونيا الجديدة ، وزيلانده الجديدة ، و منتشر بين الهنود الحمر فى أميركا شمالا وجنوبا ،وفى كثير من البلاد الافريقية واسيا وفى جاوه وسومطره ومدغشقر . والرجال فى كثير من هذه البلاد ، وخاصة فى افريقيا يتزوجون اكثر من أربعة .. ولاحد لعدد الزوجات عندهم . وهم يتزوجون من اثنتى عشرة زوجة الى ثلثمائة ، ويفاخرون بكثرة الزوجات ، لانه يدل على قوة الرجل ، وعلى غناه وثروته . وقد يعدد الرجال الزوجات ليساعدنهم فى أعمالهم الزراعية ، أو التجارية أو الصناعية

ويعتبر قبائل الكوش فى أميركا الشمالية كما قال الرحالة الانجليزى شوتر ــ ان تعدد الزوجات هو عادة حسنة .ويقول الرحالة الانجليزى لفنجستون ان نساء قبائل الماكولولوس فى افريقيا حينما علمن أن الانجليز لا يعددون الزوجات صحن قائلات انهن لا يفهمن كيف ان الانجليزيات يرضين بذلك ..!

وتعتقد قبائل الشيبوى ان العدد للزوجات محبوب ومحترم عند الروح الاكبر ، وهو معبودهم . وقد كان المصريون القدماء يعددون الزوجات ويرون ذلك موافقا للاخلاق الفاضلة ، والتعاليم الالهية ، ويقولون ان الله يبارك فى رجال لهم أزواج عدة ، وسرارٍ كثيرة ..!

العدل ، ويحافظون على حرمات النســـاء وحقـــوقهن ، ويعاشرونهن بالمعروف ويفارقونهن عند الحاجة بالمعروف.. فهؤلاء الافاضل الاتقياء لا لوم عليهم فى الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعا ، وهم وان كانوا عددا قليلا فى كل بلد واقليم ، لكن اعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهــم الثناء العميم والشكر الجزيل ، وتقربهم من الله العــادل العزيز





ثلاث مسائل

القضاء والقدر

مضت سنة الله فى خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الاعمال البدنية ، فما يكون فى الاعمال من صلاح أو فساد ، فانما مرجعه فساد العقيدة ، وصلاحها ... ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها فى النفس .. ورب أصل من أصول الخير ، وقاعدة من قواعد الكمال ، اذا عرضت على الانفس فى تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع ، فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها ، أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شىء مما تصادفه ، وفى كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها ، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ فى الفهم ، أو على خبث الاستعداد ، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة .. وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده .. والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصل وتلك القاعدة ..

ومن مثل هذا الانحراف فى الفهم ، وقع التحريف

والتبديل فى بعض أصول الاديان غالبا .. بل هو علة البدع فى كل دين على الاغلب . وكثيرا ما كان هذا الانحراف ومايتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال ، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير . وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن فى دين من الاديان ، أو عقيدة من العقائد الحقة ، استنادا الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة

عقيدة دينية

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الاسلامية الحقة .. كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطوارا ، ثم حصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر فقالوا : ان المسلمين فى فقر وفاقة وتأخر فى القوة الحربية والسياسية على سائر الامم ، وقد فشا فيهم فساد الاخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض .. وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة ، وغفلوا عما يضرهم وعما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم فى فضيلة .. ولكن متى أمكن لأحدهم ان يضر أخاه لا يقصر فى الحاق الضرر به ، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد اخرى .. رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون فى بيوتهم ، يسرحون فى مرعاهم ، ثم يعودون الى مأواهم

الأمراء فيهم يقطعون ازمنتهم فى اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق فى ادائها

أعمارهم ولا يؤدون منها شيئا .. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافا وتبذيرا .. نفقاتهم واسعة ، ولكن لايدخل فى حسابها شىء يعود على دينهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون ، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية .. فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة ، كل منهما يخذل صاحبه ، ويستعدى عليه جاره ، فيجد الأجنبى فيهما قوة فانية وضعفا قاتلا ، فينال من بلادهما ما لا يكلفه عددا ولا عدة

شملهم الخوف، وعمهم الجبن والخور.. يفزعون من الهمس ، ويألمون من اللمس .. قعدوا عن الحركة الى ما يلحقون به الأمم فى العزة والشوكة ، وخالفوا فى ذلك أوامر دينهم ، معرؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم، يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون .. واذا أصاب قوما من اخوانهم مصيبة ، أو عدت عليهم عادية ، لا يسعون فى تخفيف مصابهم .. ولا ينهضون لمناصرتهم، وليست لهم جمعيات دينية كبيرة ، لا جهرية ولا سرية، يكون من مقاصدها احياء الغيرة ، وتنبيه الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بغى الأقوياء وتسلط الغرباء

هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار، **وزعموا أن لا منشأ لها الا اعتقادهم بالقضاء والقدر ، واسناد جميع همومهم على القدرة الالهية ، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة، ولن ينالوا عزا ، ولن يعيدوا مجدا ، ولا يأخذون بحق، ولا يدفعون تعديا ، ولاينهضون بتقوية سلطان ، أو تأييد ملك ، ولا يزال بهم الضعف يفعل فى نفوسهم ، ويفسد طباعهم ، حتى يؤدى بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله)**

يفنى بعضهم بعضا بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدى بعضهم يحصده الاجانب

ليست جبرية

واعتقد اولئك الافرنج انه لافرق بين الاعتقاد بالقضاء والقـــدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين : بأن الانسان مجبر فى جميع أفعاله ، وتوهموا ان المسلــمين بعقيدة القضاء يرون انفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل .. ومتى رسخ فى نفوس قوم انه لاخيار لهم فى قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وانما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة .. فلاريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ماوهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود الى عالم العدم

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول فى المشرق ، ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأه الوهم ، وبطل الزاعم · وافتروا على الله والمسلمين كذبا .. لايوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى واسماعيلى ووهــابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة .. بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختياريا فى أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثــواب والعقاب عنــد جميعهم ... وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هــذا الجزاء الاختيارى ، ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهيــة ، والنــواهى الربانية ، الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح ، وان هذا النوع من الاختيار وهو مورد التكليف الشرعى،

به تتم الحكمة والعدل

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ، ذهبت الى أن الانسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لايشوبه اختيار ، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين ان يتحرك بقفقفة البرد عند شدته ، ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة

وقد انقرض ارباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم اثر ، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد كما ظنه أولئك الواهمون (١)

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد اليه الفطرة .. وسهل على من له فكر أن يلتفت الى أن كل حادث له سبب يقاربه فى الزمان ، وانه لا يرى من سلسلة الأسباب الا ماهو حاضر لديه ، ولايعلم ماضيها الا مبدع نظامها ، وان لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وارادة الانسان انما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة . وليست الارادة الا أثرا من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بمايعرض على الحواس، وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات .. فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة مالا ينكره ابله ، فضلا عن عاقل .. وان مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة ، انما هو بيد مدبر الكون الاعظم الذى ابدع الاشياء على وفق حكمته ، وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزاء له ، خصوصا فى العالم الانسانى

---

(١) فى صفحة ٨٢ من رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده التى نشرتها سلسلة « كتاب الهلال » فى فبراير سنة ١٩٦٣ فصل بعنوان : « أفعال الله وأفعال العباد »

ولو فرضنا ان جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود الصانع للعالم ، فليس فى أمكانه ان يتملص من الاعتراف بتأثير العوامل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الارادات البشرية .. فهل يستطيع انسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنها الله فى خلقه ؟

هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن العلماء وان بعضا من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان فى اثباته، ولسنا فى حاجة الى الاستشهاد بآرائهم

ان للتاريخ علما فوق الرواية، عنى بالبحث فيه العلماء من كل أمة ، وهو العلم الباحث عن سير الأمم فى صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها، ومانشأ عنها من التغيير والتبديل فى العادات والاخلاق والافكار، بل فى خصائص الاحساس الباطن والوجدان ، وما يتبع ذلك كله من نشأة الامم ، وتكون الدول ، أو فناء بعضها واندراس أثره

هذا الفن الذى عدوه من أجل الفنون الادبية وأجزلها فائدة ، بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والاذعان بأن قوى البشر فى قبضة مدبر للكائنات ، ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوى ، ولا انهدم مجيد ، ولا تقوض سلطان

مزايا هذه العقيدة

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر : يتبعه صفة الجرأة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك التى تفزع لها قلوب الاسود،

وتنشق منها مرائر الزهور . هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الاهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج من كل مايعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح ، والتخلى عن نضرة الحياة .. كل هـذا فى سـبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة

الذى يعتقد بأن الاجل محـدود ، والرزق مكفول ، والاشياء بيد الله يصرفها كما يشاء .. كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة امته ، أو ملته ، والقيـام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر ممـا ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد ، على حسب الاوامر الالهية ، وأصول المجتمعات البشرية

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قوله الحق : « الذين قال لهم النـاس ان النـاس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبـوا بنعمـة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم »

اندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها ويتسلطون عليها ، فأدهشـوا العقول وحيروا الالباب بما دوخوا الدول وقهروا الامم ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينى الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدار الصين ــ مع قلة عدتهم وعددهم ، وعدم تعـودهم على الأجـواء المختلفة ، وطبائع الاقطار المتنوعة ــ أرغمـوا الملوك ، واذلوا القياصرة والاكاسرة ، فى مدة لا تتجـاوز ثمانين سنة .. ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات

دمروا بلادا ، ودكوا اطوادا ، ورفعـوا فوق الارض

ارضا ثانية من القسطل (١)، وطبقة أخرى من النقع(٢)، وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافر جيادهم ، وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رءوس النابذين لسلطانهم ، وارجفوا كل قلب ، وأرعدوا كل فريصة ، وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به اقدام بعض الاعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من اهل المغرب .. وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل اعلاء كلمتهم ، لايخشون فقرا ولايخافون فاقة. هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم، ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم .. كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة ، واحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة .. وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم ، وخدمتها فيما تحتاج اليه ، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ، ولا تغشى الاولاد مهابة .. هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويبدد فلذات الاكباد .. حتى كانوا ينصرون بالرعب ،

---

(١) القسطل الغبار الساطع فى الحرب
(٢) الماء المستنقع أى المتجمع

يقذف به فى قلوب أعدائهم فيهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل ان تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم

بكائى على السالفين ، ونحيبى على السابقين .. أين انتم يا عصبة الرحمة وأولياء الشفقة ؟.. اين انتم يا أعلام المروءة ، وشوامخ القوة ؟ .. اين انتم يا آل النجدة، وغوث المضيم يوم الشدة ؟ .. اين انتم يا خير امة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟

أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمة ؟.. الا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم .. انحرفوا عن سنتكم : وحادوا عن طريقكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعا ، حتى اصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا ، وتحترق الاكباد حزنا .. اضحوا فريسة للامم الاجنبية لا يستطيعون ذودا عن حوضهم ، ولا دفاعا عن حوزتهم ، الا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدى الضال ، الى سواء السبيل ؟ « انا لله وانا اليه راجعون »

عقيدة العظماء

اقول وربما لا أخشى واهما ينازعنى فيما اقول ، انه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى الى اليوم ، ما وجد فاتح عظيم ، ولا محارب شهير ، نبت فى أوسط الطبقات، ثم رقى بهمته الى أعلى الدرجات ، فذللت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى

العجيب ، ويبعث الفكر لطلب السبب ، الا كان معتقدا بالقضاء والقدر

سبحان الله .. الانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة .. فما الذى يهون عليه المخاطر ، وخوض المهالك ، ومصارعة المنايا ، الا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وركون قلبه الى ان القدر كائن ولا أثر لهول المظاهر

أثبتت لنا حوادث التاريخ ان كورش الفارسى «كيخسرو» وهو اول فاتح يعرف فى تاريخ الأقدمين ، ما تسنى له الظفر فى فتوحاته الواسعة ، الا لأنه كان معتقدا بالقضاء والقدر .. فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ، ولا توهن عزيمته شدة .. وان اسكندر الاكبر اليونانى كان ممن رسخ فى نفوسهم هذه العقيدة الجليلة، وجنكيزخان التترى — صاحب الفتوحات المشهورة — كان من ارباب هذا الاعتقاد .. بل كان نابوليون بونابرت الفرنسى من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء ، وهى التى كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة ، فيتهيأ له الظفر ، وينال بغيته من النصر

فنعم الاعتقاد الذى يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن — وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله فى طبقته أيا كانت — نعم ، اننا لا ننكر ان هذه العقيدة قد خالطها فى نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر ، وربما كان هذا سببا فى رزيئتهم ببعض المصائب التى أخذتهم بها الحوادث فى العصور الاخيرة

ورجاؤنا فى الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم فى تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ، ويذكروا العامة بسنن السلف

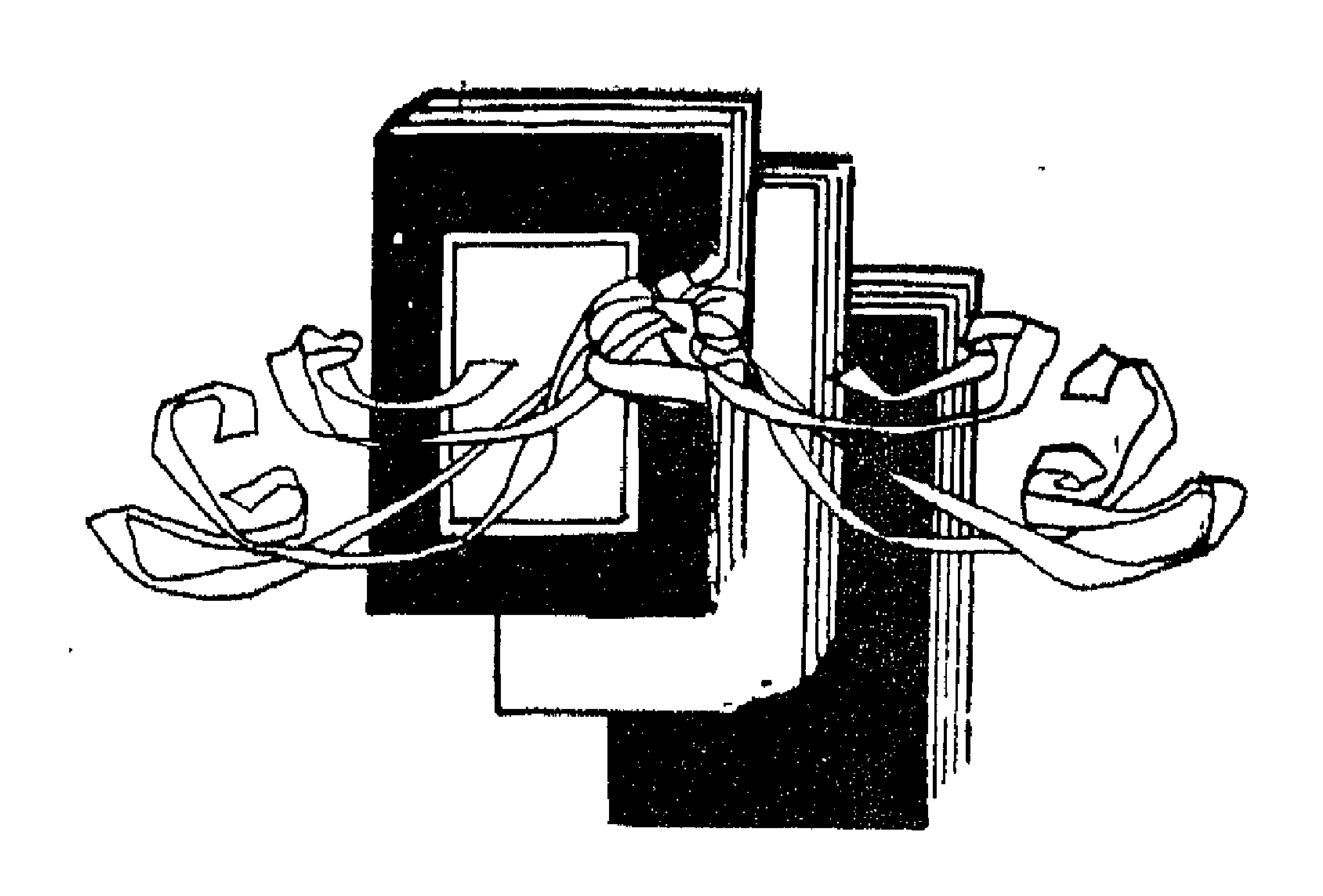
الصالح وما كانوا يعملون، وينشروا بينهم ما أثبتته ائمتنا رضى الله عنهم ــ كالشيخ الغزالى وأمثاله ــ من أن التوكل والركون الى القضاء انما طلبه الشرع منا فى العمل ، لا فى البطالة والكسل .. وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا، وننبذ ما أوجب علينا ، بحجة التوكل عليه ، فتلك حجة المارقين عن الدين ، الحائدين عن الصراط المستقيم .. ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامى فى أن الدفاع عن الملة فى هذه الاوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف

وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقة ــ التى تجمع كلمتهم ، وترد اليهم عزيمتهم ، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الاول ــ الا دعوة خير من علمائهم .. وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم

اما ما زعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخر ، فليس منشأه هذه العقيدة « ولا غيرها من العقائد الاسلامية » ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه ، بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار .. نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر ، وثمل من العز والغلب ، وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان ، صدمة من طرف الشرق وهى غارة التتر من جنكيزخان وأحفاده ، وصدمة من جهة الغرب، وهى زحف الأمم الأوروبية بأسرها على ديارهم .. وان الصدمة فى حال النشوة تذهب بالرأى، وتوجب الدهشة والسبات ، بحكم الطبيعة .. وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ، واسند الامر فيهم الى غير أهله ، وولى على امورهم من لايحسن سياستها . فكان حكامهم وامراؤهم من جراثيم الفساد فى أخلاقهم وطباعهم ، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم ، وقصرت

انظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيــات التى لا تتجاوز لذته الذاتية .. وأخذ كل منهم بناصية الاخر ،يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب ، لا لعلة صحيحة ولا داع قوى .. وجعلوا هذا ثمرة الحيـــاة ، فآل الامر بهم الى الضعف والقنوط ، وأدى الى ما صاروا اليه

ولكنى أقول ــ وحق ما أقول ــ ان هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح فى أذهانهم ، وحقائقها متداولة بين العلماء الراســخين منهم .. وكل ما عرض عليهم من الأمــراض النفسية والاعتلال العقلى ، فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة ، ويعود الأمر كما بدأ ، وأن ينشطوا من عقالهم ، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر فى انقاذ بلادهم، وارهاب الأمم الطامعة فيهم ، وايقافها عند حــدها .. وما ذلك ببعيد



فتوحات الإسلام
وأحاديث القصاصين

سألني سائل عن الرأى فيما يوجد بأيدى الناس من كتب الغزوات الاسلامية والاخبار الفتوح الاولى ، وعما حشيت به تلك الكتب من اقوال واعمال تنسب الى النبى صلى الله عليه وسلم ، والى كبار اصحابه رضى الله عنهم ، وهل يصح الاعتماد على شىء منها ، ثم خص فى السؤال كتاب الشيخ الواقدى الموضوع فى فتوح الشام ، وذكر لى أن بعضا من معربدة هذه الايام المعتدين ، على مقام التصنيف ، قد جعلوا هذا الكتاب عمدة نقلهم ، ومثابة يرجعون اليها فى روايتهم ، ليتخذوا منه حجة على مايروجونه من تشويه سيرة المسلمين الاولين ، وليسلكوا منه سبيلا الى اذاعة المثالب ، ونشر المعايب وأن بعضا آخر من ضعفة العقول من المسلمين ، ظنوا هذا الكتاب من الأنفس ماذخر الاولون للآخرين ، وأنه جدير أن يحرز فى خزائن الكتب السياسية ، وحقيق ان ينقل من اللغة العربية الى اغيرها من اللغات ، فأجبت السائل بجواب أحببت لو ينشر ، على ظن أن تكون فيه ذكرى لمن يتذكر

لم يرزأ الاسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون اليه ، وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه ، فذلك مما جلب

الفساد على عقول المسلمين ، وأساء ظنون غيرهم فيما بنى عليه الدين ، وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدى فى قرونه الاولى ، حتى عرف ذلك فى عهد الصحابة رضى الله عنهم ، بل عهد الكذب على النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ، حتى خطب فى الناس قائلا :

« ايها الناس قد كثرت على الكذابة ، الا من يكذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » أو كما قال (١)

الا ان عموم البلوى بالاكاذيب حق على الناس بلاؤه فى دولة الامويين ، فكثر الناقلون ، وقل الصادقون ، وامتنع كثير من أجلة الصحابة عن الحديث الا لمن يثقون بحفظه ، خوفا من التحريف فيما يؤخذ عنهم ، حتى سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنه : لم لا تحدث ؟ فقال : لكثرة المحدثين . وروى عنه الامام مسلم فى مقدمة صحيحه أنه قال : ما رأيت أهل الخير فى شىء أكذب منهم فى الحديث(٢) ثم اتسع شر الافتراء ، وتفاقم خطب الاختلاق ، وامتد بامتداد الزمان ، الى ان نهض ائمة الدين من المحدثين ، والعلماء العاملين ، ووضعوا للحديث اصولا ، وشرطوا فى صحة الرواية شروطا ، وبينوا درجات الرواة واوصافهم ، ومن يوثق به ومن لايوثق به منهم ، وصار ذلك فنا من أهم الفنون سموه فن الاسناد ، واتبعوه بفن آخر سموه فن مصطلح الحديث ، فامتاز بذلك الصحيح من الفاسد ، وامتاز الحق من الباطل ، وعرفت الكتب الموثوق بها من

---

(٢) لا اذكر اننى رأيت الحديث بهذا اللفظ وظاهر أنه مروى بالمعنى بقوله أو كما قال

(١) روى مسلم هذه العبارة فى مقدمة صحيحه عن يحيى بن سعيد القطان بهذا اللفظ وبلفظ الصالحين بدل أهل الخير ولم يذكر ابن عباس وأوله بأن الكذب يجرى على لسانهم ولا يتعمدون الكذب يعنى يروون الاحاديث الموضوعة ولا يعلمون لحسن ظنهم وعدم نقدهم

غيرها ، وثبت علم ذلك عند كل ذى المام بالديانة الاسلامية

وقد روى عن الامام مالك رضى الله عنه أنه كان قد كتب كتابه الموطأ حاويا أربعة عشر ألف حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم سمع حديث « قد كثرت على الكذابه فطابقوا بين كلامى والقرآن ، فان وافقه والا فاطرحوه » عاد الى تحرير كتابه ، فلم يثبت له من الاربعة عشر الفا أكثر من الف ومن راجع مقدمة الامام مسلم علم مالحقه ، من التعب والعناء فى تصنيف صــــحيحه ، واطلع على ما ادخله الدخلاء فى الدين وليس منه فى شيء لم يخف على اهل النظر فى التاريخ أن الدين الاسلامى غشى ابصار العالم بلامع القوة ، وعلا رءوس الامم بسلطان السطوة وفاض فى الناس فيضان السيول المنحدرة ، ولاحت لهم فيه رغبات ، وتمثلت لهم منه مرهبات ، وقامت لأولى الالباب عليه آيات بينات . فكان الداخلون فى الدين على هذه الاقسام : قوم اعتقدوا به اذعانا لحجته واستضاءة بنوره ، وأولئك الصادقون . وقوم من ملل مختلفة انتحلوا لقبه ، واتسموا بسمته ، اما لرغبة فى مغانمه ، أو لرغبة من سطوات اهله ، او لتعزز بالانتساب اليه ، فتدثروا بدثاره ، لكنهم لم يستشعروا بشعاره . لبسوا الاسلام على ظواهر احوالهم الا انه لم يمس أعشار قلوبهم ، فهم كانوا على اديانهم فى بواطنهم ، ويضارعــــون المسلمين فى ظواهرهم . وقد قال الله فى قوم من أشباههم (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) فمن هؤلاء من كان يبالغ فى الرياء ، حتى يظن الناس انه من الاتقياء ، فاذا أحس من قوم ثقة بقوله أخذ يروى لهم احاديث دينه القديم ، مسندا لها الى النبى صلى الله عليه وسلم أو بعض اصــــحابه ؛

ولهذا ترى جميع الاسرائيليات وما حوته شروح التوراة قد نقل الى الكتب الاسلامية ، على أنه أحاديث نبوية ، الا أن أئمة الدين عرفوا ذلك فنصوا على عدم صحتها ، ونهوا عن النظر فيها . ومنهم من تعمد وضع الاحاديث التى لو رسخت معانيها فى العقول أفسدت الاخـــلاق ، وحملت على التهاون بالاعمال الشرعية ، وفترت الهمـم عن الانتصار للحق ، كالاحاديث الدالة على انقضاء عمر الاسلام (والعياذ بالله) أو المطمعة فى عفو الله مع الانحراف عن شرعه ، أو الحاملة على التسليم للقدر بترك العقل فيما يصلح الدين والدنيا .. كل ذلك يضعه الواضعون قصدا لافساد المسلمين ، وتحويلهم عن أصول دينهم ، ليختل نظامهم ، ويضعف حولهم

ومن الكاذبين قوم ظنوا ان التزيد فى الاخبار والاكثار من القول يرفع من شأن الدين ، فهذروا بما شـــاءوا ، يبتغون بذلك الاجر والثواب ، ولن ينالهم الا الوزر والعقاب، وهم الذين قال فيهم ابن عباس : مارأيت أهل الخير فى شيء أكذب منهم فى الحديث . ويريد بأهل الخير أولئك الذين يطيلون سبالهم ، ويوسعون سربالهم ، ويطأطئون رءوسهم ، ويخفتون من أصواتهم ، ويغدون ويروحون الى المساجد بأسباحهم ، وهم أبعد الناس عنها بأرواحهم ، يحركون بالذكر شفاههم ، ويلحقون بهاقى الحركة سبحهم ، ولكنهم كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب : منقادون لحملة الحق ، لا بصيرة لهم فى أحنائه ، ينقدح الشـــك فى قلوبهم لاول عارض من شبهة ، جعلوا الدين من أقفال البصيرة ومغاليق العقل ، فهم أغرار مرحومون ، يسيئون ويحســـــون أنهم يحسنون » فهؤلاء قد يخيـــل لهم الظلم عدلا ، والغدر فضلا ، فيرون أن نسبة مايظنون الى اصحاب النبى مما يزيد فى فضلهم ، ويعلى فى النفـوس

منزلتهم ، فيصح فيهم ما قيل : عدو عاقل خير من محب جاهل . ومن هؤلاء وضاع كتب المغازى والفتوح وما شاكلها

اما الشيخ الواقدى فكان من علماء الدولة العباسية ، ولاه المأمون القضاء فى عسكر المهدى ، وكان تولى القضاء فى شرقى بغداد . قال ابن خلكان : « وضعفوه فى الحديث وتكلموا فيه » أى عدوه ضعيف الرواية ليس من أهل الثقة . ولذا نعى الامام الرملى من علماء الشافعية : على أنه لايؤخذ بروايته فى المغازى (١) فان كان هذا الكتاب المطبوع الموجود فى أيدى الناس من تصنيفه ، فهذه منزلته من الضعف عند علماء المسلمين ، على أنى لو حكمت بأنه مكذوب عليه ، مخترع النسبة اليه ، لم أكن مخطئا

وذلك لأن الواقدى كان من اهل المائة الثانية بعد الهجرة ، وكان من العلم بحيث يعرفه مثل المأمون بن هارون الرشيد ، ويواصله ويكاتبه ، وصاحب هذه المنزلة فى القرون اذ نطق فى العربية فانما ينطق بلغتها ، وقد كانت اللغة لتلك الاجيال على المعهود فيها من متانة التأليف ، وجزالة اللفظ وبداوة التعبير . والناظر فى كتاب الواقدى ينكشف له بأول النظر ان عبارته من صناعات المتأخرين فى أساليبها ، وما ينقل فيها من كلام الصحابة مثل خالد بن الوليد وأبى عبيدة وغيرهم رضى الله عنهم لاينطبق على مذاهبهم فى النطق ، بل كلها دقق المطالع فى أحناء قوله يجد أسلوبه من أساليب القصاصين فى الديار المصرية من أبناء المائة الثامنة والتاسعة ، ولايرى

---

(١) اقل ما قيل فيه انه ضعيف وقد كذبه الشافعى وأحمد وروى البيهقى عن الشافعى انه قال كتب الواقدى كلها كذب، ووثقه آخرون ولا خلاف فى كونه من اعلم علماء الملة . كما فى تهذيب التهذيب

عليه لهجة المدنيين ولا العراقيين ، والرجل كان مدنى المنبت عراقى المقام ، ولولا خوف التطويل لاتيت بكثير من عباراته ، وبينت وجه المخالفة بينهما وبين مناهج ابناء القرون الأولى فى التعبير ، على ان ذلك لايحتاج الى البيان عند العارفين بأطوار اللغة العربية

فهذا الكتاب لايصح الثقة به ، لأنه مكذوب النسبة على الواقدى وهو الأظهر ، واما لضعف الواقدى نفسه فى رواية المغازى كما صرح به العلماء ، فلا تقوم به حجة للمتحذلقين ، ولايصلح ذاخرا للسياسيين ، ومثل هذا الكتاب كتب كثيرة كقصص الانبياء المنسوب لابى منصور الثعالبى ، وكثير من الكتب المتعلقة بأحوال الآخرة ، أو بدء العالم ، أو بعض حقائق المخلوقات المنسوبة الى الشيخ السيوطى ، واقصص روايات تنسب الى كعب الأحبار أو الاصمعى ، وما شاكلهما ممن عرفوا بالرواية ، فأولع الناس بالنسبة اليهم من غير تفريق بين صحيح وباطل ، فجميع ذلك مما لا اعتداد به عند العلماء ، ولاثقة بما يندرج فيه . والعمدة فى النقل التاريخى كتب الحديث كصحيحى البخارى ومسلم وغيرهما من الصحاح ، ويتلوها كتب المحققين من المؤرخين كابن الأثير والمسعودى وابن خلدون وأبى الفدا وأمثالهم . وعلى أى حال فلا يستغنى مطالع التاريخ عن قوة حاكمة يميز بها بين ما ينطبق على الواقع وما ينبو عنه

الوهم حجاب الحقيقة

((اللهم اكشف عن بصــــائرنا ستار الاوهام حتى نرى الحقائق كما هى كى لانضل ونشقى))

الا قاتل الله الوهم .. الوهم طورا يكون مرآة المزعجات، ومجلى المفزعات .. وطورا يكون ممثلا للمسرات، حاكيا للمنعشات، وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة، وغشاء على عين البصيرة .. لكن له ســـلطانا على الارادة وحكما على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيدا ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكا .. الوهم يذهل الواهم عن نفسه، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما ، والمعـــدوم موجودا .. الواهم فى كون غير موجود ، وعالم غير مشهود، يخبط فيه خبط المصروع ، لا يدرى ماذا أدركه وماذا تركه

الوهم روح خبيث يلابس الروح الانســـانية وهى فى ظلام الجهل .. اذا خفيت الحقـــائق تحكمت الاوهام ، وتسلطت على الارادات ، فتقـــود الواهمين الى بيـــداء الضلالة ، فيخبطون فى مجاهيل ، لا يهتدون الى سبيل، ولا يستقيمون على طريق

كان الانجليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد مستعدة للفتوحات .. وذلك فى زمان بليت فيه الامم الشرقية بتفريق الكلمة ، واختلاف الاهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعاداتهم .. فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحرا أو كرامة ، فانتهز الانجليز تلك الفرصة واندفعوا الى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب ارجائه ، وما دهموا سكانه الا ببعض غرائب الصناعة الاوربية التى أثارت فيهم خواطر الاوهام ، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الانجليز من حبائل الحيلة والمكر ، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما فى أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم .. فسلبوا أموالهم ، وانتزعوا منهم أراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم ، فاستغنت الأمة الانجليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفهت بما ملكت ، وحكمت أقطارا واسعة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسمة على تلك الاقطار ، متوزعة فيها ، فلا ترى فى كل امارة من اماراتها الشرقية الا نزر من العدد والعدة ، وهى فى جميعها ضعيفة واهنة ، لا تستطيع ذودا ولا دفاعا ، وان اخف حركة فى تلك الانحاء توجب زعزعة فى تلك القوة أو هدمها والقضاء عليها

وقد ظهر هذا الامر على الامة الانجليزية ، فهى دائما فى رجفة على أملاكها ، فى خوف من تمزقها وضياعها .. تتوجس من كل حادثة فى العالم ، وتقلق لأية حركة تحدث فى الوجود ، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب تسبب حدوثها زلزلة فى قوى الانجليز المتوزعة فى الانحاء الضعيفة فى جميع الارجاء

ومع هذا كله نرى ذلك خفيا على الشرقيين ، محجوبا عنهم بحجاب الوهم .. يمثل الوهم لكل شرقى أن الانجليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم ، فمثل الشرقيين مع الانجليز كمثل مار فى مغارة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه ، فاقدة الحياة عديمة الحراك ، فليتوهمها سبعا ضاريا ومفترسا قويا ، فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفا أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتختلط عليه مسالك الوصول الى غايته ، وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه .. بل لا نخطىء ان قلنا ان هذا الوهم كان متسلطا على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين ، فالأوربيون كانوا ينظرون الى انجلترا فى أملاكها البعيدة كما ينظرون اليها فى جزائر بريطانيا ، وكانت حكومة انجلترا متحصنة ممتنعة فى هذه القبة الوهمية ، متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية ، يحس الانجليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما فى ستره .. ولا ستار أكثف من الوهم ، ولهذا نراهم فى كل حادثة يضجون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الاوهام ، فتحول انظار الناظرين ، وتغشى بصائر المستبصرين .. فتحول دون استطلاع الحقيقة ، والا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانجليز

ذهب الانجليز الى الهند فى قوى مجتمعة ، وتسابقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال فى ميدان الاراضى الهندية الواسعة .. فحازوا فى هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر ، وبما ساعدهم على ذلك من

غفلة الهنود لذاك العهد او طيب قلوبهم .. فمالت النفوس الى الانجليز اغترارا ، وتغلبوا على تلك البلاد ، واستقلوا بأمرها شيئا فشيئا .. وما ابقوا لغيرهم من الدول الا مضائق من الارض لا تذكر ، واول ما استمالوا به القلوب المسالمة قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة فرنسا ، وهولندا ، والبرتغال .. فانها تريد التسلط على ممالككم ، اما نحن الانجليز فلا نريد الا تحريركم واستقلالكم . ان للانجليز الآن فى الهند والهند الصينية وبورما سلطة على ملايين النفوس ، كلها كارهة لتلك السلطة الانجليزية ، تطلب التخلص منها ـ وتفضل أية سلطة سواها ـ ظالمة كانت أو عادلة ـ كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الامم انه لا توجد حكومة فى العالم تبلغ فى ظلمها مبلغ الانجليز ، ولا تصل الى ماوصل اليه الانجليز فى الكبرياء والجبروت

ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب اولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد ارجائها ، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لايوجد بينهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة الا خمسون (١) الف جندى انجليزى ، مع انه يوجد من الممالك الصغيرة التى لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها ، ما لو جمعت قواها لبلغت اكثر من ثلاثمائة الف جندى .. هذا فضلا عمن يستطيعون حمل السلاح من اهالى البلاد التى دخلت تحت سيطرة الحكومة الانجليزية وزال استقلالها

فلولا الوهم الذى استولى على المشاعر والحواس ،

---

(١) هذه القوة كانت موجودة أثناء كتابة هذا المقال .. وقد أصبحت هذه البلاد مستقلة استقلالا كاملا ولا صلة لهابانجلترا الا بتلك المعاهدة التي جعلتها ضمن دول الكومنولث

حتى اذهلها عما بين يديها ، بل عما هو موجود فيها ..
ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة فى قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان ، لو لمح اولئك المساكين انفسهم لمحة اعتبار ، وادركوا ما اتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا الى ضعف الانجليز فى الحالة الحاضرة لراوا موئل الخلاص بين ايديهم ، وملجأ النجاة تحت ارجلهم .. وعلموا ان استقلالهم لانفسهم وبلادهم ، لا يحتاج الى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ، ولايدعو الى بذل اموال وفيرة ، ولا سفك دماء غزيرة

وهم الدول

يوجد فى الدول الاوربية من يهاب دولة الانجليز اعتبارا لما فى سلطتها من الممالك الواسعة والامم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول ، ويقيس شأنها وقوتها فى تلك الاطراف القاصية بما يراه فى جزائر بريطانيا ، ويظن ان لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه فى بريطانيا او تقرب منها . ولم يلتفت الى ان جسم الانجليز قد مد فى الطول والعرض الى حد لو حصلت فيه ادنى هزة لتقطعت اوصاله وتفرقت قواهم فى بسيط الارض حتى لم تبق لهم فى موضع قوة ورعاياهم فى كل صقع فى ضجر لا مزيد عليه ، يترقبون فى كل آن زحفا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين ولو التفتت تلك الدولة التى تهاب انجلترا الى حقيقة الامر ، لما احتاجت فى معارضتها ومنازلتها الى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الامر من الظهور الى حد لا يحتاج الى دقة الفكر لولا حجاب الوهم .. قاتل الله الوهم .. !!

ان العثمانيين ينظرون الى دولة الانجليز كما ينظرون

الى دولة الروس ، مع ملاحظة ان دولة انجلترا تحكم على مائتين وخمسين مليونا من النفوس .. فيظنون لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدوا انظارهم الى ما وراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها ان تسوق من الجنود الى ميادين القتال ، ويتضح لهم ان هذه الملايين الكثيرة لا اعتداد بها فى قوة دولة انجلترا .. فانما هى فى الحقيقة قوة لاعدائها عليها ، وهى فى ارتقاب الفرص لخلع طاعتها فمتى ارتبكت دولة انجلترا بالحرب مع دولة اخرى ، رأيت مائتين وخمسين مليونا تقاتل عساكر الانجليز ، خصوصا خمسين مليونا من المسلمين فى حكومة انجلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذا يلجأون اليه ، وهم أول قوم حربيين فى البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون أن دولة انجلترا انما تستميل المسلمين فى الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها ، اما والله لو علم العثمانيون مالهم من السلطة المعنوية على رعايا الانجليز ، واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء ، لما تجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانجليز وحيفهم فى اعمالهم ، وتعديهم على حقوق السلطان فى مثل المسألة المصرية التى هى فى الحقيقة اهم مسألة عثمانية او اسلامية

الوهم واحتلال مصر

ان سكان مصر كانوا أيام عرابى على قسمين ، قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل بأحد جانبيه الى عرابى ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثانى فى ريبة من امره ، ولا عزيمة مع الريب ، والقسم الاول مخلد الى الفشل ، فدخل الانجليز بلا

حرب حقيقية .. وانما بنوع من الترهيب ، وقليـــل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس ، صادف قلوبا مستعدة فأخذ منها مقاما ، فانحلت الرابطـة وتفرق النـــاس عن «عرابى» (١) بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحـــد منهم ان الانجليز يبتغون من البلاد شيئا سوى انهم يؤيدون توفيق باشا وينقـــذونه من الثائرين عليه ، فتساهل المصريون فى الامر بحســن ظنهم فى حكومة الانجليز مع ما جاءتهم من الحجة القـوية القائمة على أن صـاحب السيادة الشرعية فى رضـا عن تصرفها .. بهذا فاز الانجليز واستقرت اقـدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكافى لظهور غدرهم ، وســوء نيتهم ، فلا يوجد من الاهالى المصريين من يميل اليهم، بل لايوجد الا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ، ويود أن يعمـل عمـلا لهلاكهم ، ولكن الوهم يجسم الخوف ويكبح العزيمـة .. ان اهالى مصر ، كأنهم ذهلوا عن الاســباب التى مـكنت الانجليز من بلادهم ، كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كلمة واحدة فى مدافعة الانجليز ، ثم تغلبت عليهم القــوة الانجليزية وقهرتهم جميعا .. كأن المصريين نسوا ما كان بينهم ، وان الانجليز ما دخلوا بلادهم الا بمعونتهم

هذا هو الوهم العجيب .. ان الذين كانوا ســـببا فى تغلب العساكر الانجليزية وحلولها فى وادى النيل ، وأنه لولاهم ما استقر لها قدم فيه ، يظنون الان أن هـــؤلاء الجنود قادرون على قهر الاهالى عموما ، واخضاعهـــم لحكومة بريطانيا . وبهذاالظن الباطل يستسلمون لاعدائهم كرها ويجارونهم فى أهوائهم نفاقا .. الا ينظـر المصريون نظرة تأمل الى القوة الانجليزية ليعلموا أن ليس فى طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث الى مصر والســودان

(١) احمد عرابى زعيم الثورة العربية عام ١٨٨١ و ١٨٨٢

أزيد من عشرين الف جندى .. ألا يعلمون أنه اذا اشتغل الجند الانجليز بالسودان ، وحصلت حركة خفيفة فى الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانجليز وخارت عزائمهم والتجأوا لترك البلاد لاهلها .. ألا قاتل الله الوهم !

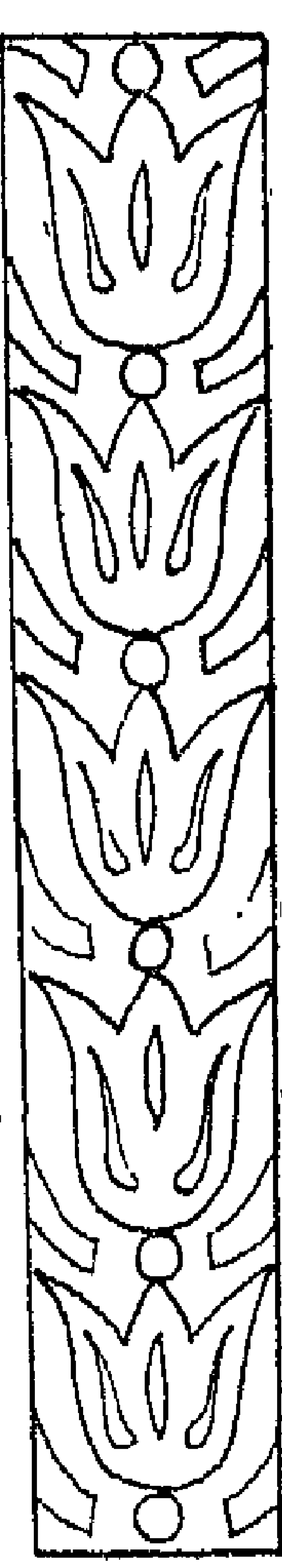
صوت عال وشبح بال

ان للانجليز قوة حربية بحرية لا تنكر ، ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذى ظهر اثره فى سواكن .. لا يمكن أن تعمل عملا فيما يبعد عن البحر اكثر من فرسخين ، فلو فرضنا ان الانجليز أطلقوا قنابلهم على السواحل فهل فى استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابل الى أبد الابدين . اذاكان الاهالى فى داخل البلاد يناوئونهم ، وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة . ليس فى الامر شىء سوى الوهم .. هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا من هم الانجليز .. ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء .. صوت عال وشبح بال . قامت الدولة على معارضتهم لعلمها ان الانجليز صاروا للامم كالدودة الوحيدة ، على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية ، لكن بقى أن يزول هذا الوهم من الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ، ويستقلوا بأمورهم ، ولا ينتقلوا من عبودية الى أخرى ، ولا يستبدلوا سيدا اجنبيا بسيد آخر

اللهم ارفع حجب الاوهام ، وهيىء لنا الرشد فى امورنا ، واحفظنا من الغواية ، واهدنا الى خير نهاية (١)

---

(١) لقد صح رأى الاستاذ الامام فى هذا الوهم العجيب الذى كان يسيطر على الافراد والجماعات وعلى بعض الدول ، وتكشفت حقيقة الانجليز ، واستقلت كثير من الامم ، وأصبحت لها ارادة قوية ، وعزيمة صادقة وسيادة حقة بعد ما زال عنها حجاب الوهم الذى سيطر عليها حقبة من الزمان



مبادئ
في الاخلاق
والاجتماع

التعصب

« اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء »

« قرآن كريم »

لفظ شغل عقول الناس خصوصا فى بلاد الشرق ، تلوكه الألسن وترمى به الافواه فى المحافل والمجامع حتى صار تكأة (١) للمتكلمين ، يلجأ اليه العيى (٢) فى تهتهته ، (٣) والذملقانى (٤) فى تفهيقه (٥) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير ، فقلما تكون عبارة الا وهو فاتحها أو حشوها أو خاتمها ، يعدون مسماه علة لكل بلاء ، ومنبعا لكل عناء ، ويزعمونه حجابا كثيفا وسدا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للرذائل

والمتسربلون بسرابيل الافرنج ، الذاهبون فى تقليدهم مذاهب الخبط والخلط ، لايميزون بين حق وباطل . . هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد ،

---

(١) التكأة : مايتوكأ عليه (٢) العيى : من العى وهو العجز عن الكلام (٣) التهتهة : ضرب من اللكنة (٤) الذملقانى : السريع الكلام (٥) التفهيق : التوسع والتنطع

فتراهم فى بيان مفاسد التعصب يهزون الرءوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال ، واذا رموا به شخصا للحط من شأنه اردفوه للتوضيح بلفظ افرنجى « فناتيك » (١) فان عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبا ، وهمزوا به وغمزوا ولمزوا ، واذا رأوه عبسوا وبسروا(٢) وشمخوا بأنوفهم كبرا وولوه دبرا ، ونادوا عليه بالويل والثبور .. ماذا سبق الى أفهامهم من هذا اللفظ ، وما تصل بعقولهم من معناه ، حتى خالوه مبدأ لكل شناعة ، ومصدرا لكل نقيصة ، وهل لهم وقوف على شىء من حقيقته ؟

ماهو التعصب ؟

التعصب قيام بالعصبية ، والعصبية من المصادر النسبية (٣) ، نسبة الى العصبة ، وهى قوم الرجل الذين يعززون قوته ، ويدفعون عنه الضيم والعداء .. فالتعصب وصف للنفس الانسانية ، تصدر عنا نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ، ووجوه الاتصال تابعة لاحكام النفس فى معلوماتها ومعارفها

هذا الوصف هو الذى شكل الله به الشعوب ، وأقام بناء الامم .. وهو عقد الربط فى كل أمة ، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، أو ينشئها بتقدير الله خلقا واحدا ، كبدن تألف من اجزاء وعناصر ، تدبره روح واحدة ، فتكون كشخص يمتاز فى أطواره وشئونه وسعادته وشقائه عن سائر الاشخاص

وهذه الوحدة هى مبعث المباراة بين أمة وأمة ، وقبيل

---

(١) معناها : متعصب
(٢) عبس قطب وجهه وبسر قطب وجهه فى تجهم بتشديد الجيم
(٣) وتسمى هذه المصادر عند علماء الصرف والنحو « المصادر الصناعية »

وقبيل ، ومباهاة كل من الامتين المتقابلتين بما يتوفر لها من اسباب الرفاهة وهناء العيش ، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة ، وسمو المقـــام ونفاذ الكلمة .. والتنافس بين الامم كالتنافس بين الاشخاص ، أعظم باعث على بلوغ أقصي درجات الكمال فى جميع لوازم الحياة بقدر ماتسعه الطاقة

التعصب روح كلى مهبطه هيئة الامة وصورتها ، وسائر أرواح الافراد حواسه ومشاعره .. فاذا ألم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبى عنه ، انفعل الروح الكلى ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العـامة ، وباعث النعرة الجنسية • هذا هو الذى يرفع نفوس آحاد الامة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الامة بضرر ،أو يؤول بها الى سوء عاقبة .. وان استقامةالطباع ورسوخ الفضيلة فى امة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها .. يكون كل منهم بمنزلةعضو سليم من بدن حى ، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم، ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا فى رتبة الوجود .. وانما كل يؤدى وظائفه لحفظ البدن وبقائه

وكلما ضعفت قوة الربط بين افراد الامـــة بضعف التعصب فيهم استرخت الاعصاب ، ورثت (١) الاطناب ، ورقت الاوتار ، وتداعى بناء الامة الى الانحلال ، كمـــا يتداعى بناء البنية البدنية الى الفناء .. بعد هذا يموت الروح الكلى ، وتبطل هيئة الامة وان بقيت آحادها ، فما هى الا كالاجزاء المتناثرة ، اما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، واما أن تبقى فى قبضة الموت الى أن ينفخ فيها روح النشأة الاخرى

(سنة الله فى خلقه) .. اذا ضعفت العصبية فى قوم رماهم

---

(١) أى بليت الاطناب

الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، واعقب الغفلة تقطع فى الروابط .. وتبعه تقاطع وتدابر ، فيتسع للاجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب فى نشأة ثانية

الاعتدال فى التعصب

نعم ان التعصب وصف كسائر الاوصاف ، له حد اعتدال وطرفا افراط وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذى بينا مزاياه ، والتفريط فيه هو النقص الذى أشرنا لرزاياه .. والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء ، فالمفرط فى تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر الى الاجنبى عنه كما ينظر الى الهمل .. لا يعترف له بحق ، ولا يرعى له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتنقلب منفعة التعصب الى مضرة ، ويذهب بهاء الامة ، بل يتقوض مجدها .. فان العدل قوام المجتمع الانسانى ،وبه حياة الامم .. وكل قوة لا تخضع للعدل مصيرها الى الزوال ، وهذا الحد من الافراط فى التعصب هو الممقوت على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم فى قوله « ليس منا من دعا الى عصبية » !

التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحد ،توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضا .. والمتنطعون من مقلدى الافرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت ، ويرمونه بالتعس . ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل ، فان لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة ، تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات ،

وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب ، وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين فى أقوام مختلفة من البشر .. وعن كل منهما صدرت فى العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانسانى ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات معيشته ، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب

فتعصب المشتركين فى الدين ، المتوافقين فى أصول العقائد ، بعضهم البعض .. اذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع الى جور فى المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية ، وأوفرها نفعا وأجزلها فائدة .. بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، اذا استحكمت صعدت بذوى الكنة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد ، خصوصا ان كانوا من قبيل قوى فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الاهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما فى أهل الديانة الاسلامية

ولا يؤخذ علينا فى القول بأنه من أقدس الروابط ، فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ؛ ويصل مابينهم فى المقاصد والعزائم والاعمال .. كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر ، بل الاجناس المتخالفة فى المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة فى الصور والاشكال ، ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف ، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم

هذا الاثر الجليل عهد لقوة التعصب الدينى ، وشهد عليه التاريخ بعد ما ارشد اليه العقل الصحيح

ثفنشغ (١) جماعة من متزندقة هذه الاوقات فى بيـــان مفاسد التعصب الدينى ، وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع مايلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير الى كمال المدنية ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم .. ومن رأى أولئك المثفثفين(٢) ان لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بانحـلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد .. وكثيرا ما يرجفون بأهل الدين الاســـلامى ، ويخوضون فى نسبة مذام التعصب اليهم

كذب الخراصون .. ان الدين أول معلم ، وارشـــد أستاذ ، وأهدى قائد للأنفس الى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف ، وأرحم مؤدب ، وأبصر مروض بطبع الارواح على الاداب الحسنة ، والخلائق الكريمة .. ويقيمها على جادة العدل ، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمـــة ، خصوصا دين الاسلام فهو الذى رفع أمة كانت من أعـرق الامم فى القسوة والخشونة .. وسما بهـا الى أرقى مراقى الحكمة والمدنية فى أقرب مدة ، وهى الامة العربية

التغالى فى التعصب

قد يطرأ على التعصب الدينى من التغـالى والافراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسى ، فيفضى الى ظلم وجور ، ربما يؤدى الى قيام أهل الدين لابادة مخالفيهـم

---

(١) ثفنشغ فى كلامه : خلط وثرثر

(٢) المغالين المتفلسفين

ومحق وجودهم .. وكما قامت الامم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والابادة ، لا للفتح ولا للدعوة الى الدين فى الحرب الهائلة المعروفة بالحرب الصليبية.. وكما فعل الاسبانيون بمسلمى الاندلس .. وكما وقع قبل هذا وذاك فى بداية الدعوة للدين المسيحى ، أن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فىالقدس واحرقهم ، الا ان هذا العارض لمخالفته لاصول الدين قلما تمتد له مدة ، ثم يرجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل

أما أهل الدين الاسلامى ، فمنهم طوائف شطت فى تعصبها فى الاجيال الماضية .. الا أنه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفيهم فى دينهم .. وما عهد ذلك فى تاريخ المسلمين بعد ماتجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الاقوم على مانقول ،وهو وجود الملل المختلفة فى ديارهم الى الان حافظة لعقائدها وعوائدها منذ أن تسلطوا عليها ، وهم فى عنفوان القوة وهى فى وهن الضعف

نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات ، وكانت لهم شدة على من يعارضهم فى سلطانهم .. الا انهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفةحقه، ويدفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم : (ان من رضى بذمتنا فله مالنا وعليه ماعلينا) ولم يعدلوا فى معاملتهم لغيرهم عن أمر الله فى قوله :(ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين) اللهم الا مالا تخلو عنه الطبائع البشرية

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحدا من

مخالفيهم عن التقدم الى مايستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة .. ولقد سما فى دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة ، وكان ذلك فى شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الامر على ماكان . . وفى الظن أن الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم

لم يسلك المسلمون من عهد قريب مسلك الالزام بدينهم، والاجبار على قبوله ، مع شدة بأسهم فى بدايات دولهم ، وتغلغلهم فى افتتاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة فى الملك والسلطة ، وانما كانت لهم دعوة يبلغونها ، فان قبلت والا استبدلوا بها رسما ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم، مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامى

هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين ،أيام شوكتهم الاولى ، فانهم ماكانوا يطاون أرضــا الا ويلزمون أهلها بتغيير أديانهم ، واعتناق دين أولئك المتسلطين — وهو الدين المسيحى — كما فعلوا فى مصر وســـورية ، بل فى البلاد الافرنجية نفسها

هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان ، وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتـــذكر ، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده : هل لعاقل لم يصب برزيئة فى عقله ان يعد الاعتدال من التعصـــب الدينى نقيصة ؟ .. وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي الا بما يكون به التعصب الدينى أقدس وأطهر وأعم فائدة ؟ .. لانخال عاقلا يرتاب فى صحة ما قررناه ، فما لاولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟

أى جانب من جوانب المنطق يستندون اليه فى المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسى فقط ، والاعتقاد بأنه فضيلة

من أشرف الفضائل ، ويعبرون عنه بمحبة الوطن ، وأى قاعدة من قواعد العمران البشرى يستندون اليهـــا فى التهاون بالتعصب الدينى المعتدل ، وحسبانه نقيصـــة يجب الترفع عنها

الافرنج والرابطة الاسلامية

نعم ان الافرنج تأكد لديهم ان أقوى رابطة بين المسلمين انما فى الرابطة الدينية ، وأدركوا أن قوتهم لا تـكون الا بالعصبية الاعتقادية .. ولاولئك الافرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعا وأحزابا .. فانهم علموا كما علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون من المسلمين لايعرفون لهم جنسية الا فى دينهم واعتقادهم ، وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين ـ جهدا وتقليدا ـ فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعد مافقدوها ، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس التى يبالون فى تعظيمها واحترامها حمقا منهم وسفاهة .. فمثلهم كمثل من هدم بيته قبـــل أن يهيىء لنفسه مسكنا سواه ، فاضطر للاقامة بالعــراء معرضا للعوامل الجوية وما تصول به على حياته

هذا أسلوب من السياسة الاوربيـــة اجادت الدول اختباره وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل فى البــلاد الاسلامية ، ولم تعدم صيدا من الامراء والمنتسبـين الى العلم والمدنية الجديدة ، واستعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم .. وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة،

ولكنا نعجب من أن بعضا من سذج المسلمين ــ مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى ايمانهم ــ يسفكون الكلام فى ذم التعصب الدينى ، ويهجرون فى رمى المتعصبين بالخشونة، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة .. ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المارقين ، يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفى محوه محو الملة ودفعها الى أيدى الاجانب يستعبدونها مادامت الارض أرضا والسماء سماء

والله ما عجبنا من هؤلاء بأشد من العجب لاحوال الغربيين من الامم الافرنجية الذين يبذلون اقصى الجهد لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ، ولا يخجلون من تبشيع التعصب الدينى ورمى المتعصبين بالخشونة .. الافرنج اشد الناس فى هذا النوع من التعصب ، وأحرصهم على القيام بدواعيه .. ومن القواعد الاساسية فى حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين ، والقائمين بنشره ، ومساعدتهم على نجاح أعمالهم .. واذا عدت عادية ــ مما لا يخلو عنه المجتمع البشرى ــ على واحد ممن على دينهم ومذاهبهم فى ناحية من نواحى الشرق سمعت صياحا وعويلا ، تتلاقى أمواجه فى جو بلاد المدنية الغربية ،وينادى جميعهم : ألا قد ألمت ملمة ، وحدثت حادثة مهمة ،فاجمعوا الامر وخذوا الاهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية . وتراهم على اختلافهم فى الاجناس وتباغضهم ، وتحاقدهم وتنابذهم فى السياسات ، وترقب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء .. يتقاربون ويتآلفون ويتحدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاركهم فى الدين ، وان كان فى اقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية

اما لو فاض طوفان الفتن ، وطم وجه الارض ، وغمر البسيطة دماء المخالفين لهم فى الدين والمذهب .. فلا ينهض فيهم عرق ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه .. وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع فى الفطرة البشرية من الشفقة الانسانية والرحمة الطبيعية .. كأنما يعدون الخارجين عن دينهم ، من الحيوانات السائمة والهمل الرعية ، وليس من نوع الانسان الذى يزعم الاوروبيون أنهم حماته وأنصاره

وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لايعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين فى تعصبهم الدينى ، ولا يألون جهدا فى تقوية عصبيتهم .. وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيرا ما تجاوزوه .. امل ان شأن الافرنج فى تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب !!..

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة فى الحرية كجلادستون ، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه الا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب (١) بل لا ترى روحه الا نسخة من روحه

نداء الى المسلمين

فيا ايتها الامة هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وارواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت .. هذه هى روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل .. ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ،واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة أجتمع فيها

---

(١) هو داعية الحرب الصليبية ويسمى بطرس الناسك « ١٠٥٠ ـ ١١١٥ م » وهو فرنسى ومعنى بطرس « الصخرة »

العربى بالتركى ، والفارسى بالهندى ، والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم مقام رابطة النسب حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وان تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره

هذه صلة من امتن الصلات ساقها الله اليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها .. ولكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ، فالعدل اساس الكون وبه قوامه .. ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم ، وتأدية الحقوق لاربابها ، وحسن المعاملة ، واحكام الألفة فى المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الاديان المختلفة .. فان مصالحكم لا تقوم الا بمصالحهم ، كما لا تقوم مصالحهم الا بمصالحكم . وعليكم الا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق ، فان دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب .. ولا تجعلوا عصبيتكم مقصورة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الامم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ، ومنافستهم فى اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية ، اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم ، واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص الى ذروة الكمال « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » !



الشجاعة وعلو الهمة

العالم الانسانى كتاب المعتبر ، وسفر المستبصر .. وكل قرن من قرونه صفحة ، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ، ولنا فى كل ما خطه القلم الالهى عبرة

اول مايفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب فى اطوارها المختلفة ، وأدوارها المتبدلة .. فترى امما علت وسمت وحلقت فى جو المعالى وجازت فى الرفعة مسارح النظر ، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها ، ولم يبق لها أثر الا فى الروايات والاحاديث ، ومنها أجيال كانت فى أطواء الفناء ، ثم اكتست حلية الوجود ، واتخذت من المجتمع الانسانى مكان الهامة من الجسد ، ثم انطوت واخنت عليها أم قشعم (١) .. ومنها ما نراه الى اليوم يسحب مطارف العزة ، ويشرف على العالم بالامر والنهى من شواهق القوة

فمن الناس من تتجلى له هذه الشئون وتلك الاطوار كما تعرض عليه التماثيل ، ينبسط لبعضها اذا أعجبه ،

---

(١) يراد بها هنا الموت وقد يراد بها الداهية ، والحرب فى غير هذا الموضع . والقشعم فى الاصل المسن من الرجال والنساء والنسور ، ويطلق على الاسد وجمعه قشاعم وقشاعيم

وينقبض لآخر اذا أنكره .. وهو فى غفلة عن منشأ ظهورها وعلل انقلابها ، فان سئل عن السبب قال : سبحان الله هكذا كان وهكذا يكون ، وما هو الا بخت يسعد فيسعد به السعداء ، وينحس فيتعس به الاشقياء

النافذون الى الحقيقة

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة ، فيقف على ماهيأه الله من الاسباب التى تتبعها أحوال الامم فى صعودها وهبوطها ، ويعلم أن ماسيق من الخير لامة انما كان بأيدى آحاد من اماثلها جدوا وجاهدوا وفازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبنى جنسهم .. بما بذلوا من نفائسهم وانفسهم .. ويرى لاولئك الاعلام ذكرا يرفع ، ومكانة من القلوب تحمد ، وتمييزا عند الخلف بالكرامة .. وهم لايخالفون الناس فى جسومهم ودمائهم ، وانما تقدموهم بهممهم . وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم رغبة فى اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر .. فاذا أخذ مأخذهم ، واستقام على طريقهم ، فلا يكاد يخطو بضع خطوات ومبدأ المسير تحت نظره ، حتى تتعثر أقدامه فى أياد مقطعة ، ورءوس مجذوذة ، وأشلاء مبددة ، وشعور منثورة ، وصدور مدقوقة ، ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء ، من طلاب الحق والناهجين فى مناهجه ، ولا محيص عن سلوكها .. وتبدو له غابات وادغال يرجع اليه منها صدى زئير الآساد وزمجرة الضراغم ، ولابد له من اختراقها

هكذا تنكشف لطالب المعالى موحشات مدهشات مصاولة لمخاطر أدناها ، والموت الشريف أقصاها وأعلاها .. فتارة يخور عزمه ويضعف همه فينكص على عقبيه ، ويرتد الى أسوأ أحواله ويرتع فى مراتع أمثاله

ان من أحياه الله الحياة الانسانية ، كلما هاجمته

المصاعب لا يزداد الا حرصا على قهرها ، كما أن صاحب الشمم لا يزيده الخصام الا حدة فى الجدال ، واصرار على اقناع المخاصم .. وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياتههذه بروححيوان آخر ، وهو يعانى فيها من الشقاء أشد مما يعانيه الانسان فى ابراز مزايا الانسان

ان صاعد الجبل ربما يجد شيئا من التعب ويخشى أن تفترسه الكواسر ولكن قد ينجو منها ويستريح على القمة ، ويعتصم بمكانه من الرفعة ، وتقصر عنه يد المتناول .. أما من اخلد الى السفح فحظه من الحياة خوف لاينقطع ، واشفاق لا يزول ، كل لحظة تهدده بالسقوط فى صيد الصائد ، والوقوع بين أنياب الغائل . مات من الناس كثير فى طلب العلا ولم ينالوا ، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما أملوا ، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن الفوا الخمول ، ورضوا بالحياة الحيوانية .. هذه أحاديث الحق ، ونفثات الروح الزكيه ، تبعث من ايده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتناء أثر الماضين الى أشرف المقاصد ، فاما وصل واما مات كما يموت الكرام

لم تنل امة من الامم مزية من المزايا المحمودة عند بنى البشر ، سواء فى العلوم والمعارف ، والاداب والفضائل ، او القوانين والنواميس العادلة ، او العسكرية وقوة الحماية،حتىخرج آحاد منها الى ماتخشاه النفوس وتهابه القلوب ، وسلكوا تلك المسالك الوعرة .. فبلغوا بأممهم ، أقصى ما بلغت بهم هممهم ، مع الاعتماد على العناية الازلية فى جميع سيرهم

ماذا يريد القانون فى خدمة الامم أو النوع الانسانى ، والمنفقون لحياتهم فى اعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الامة أو الملة او يشاركهم فى النوع ..

أليس قد جعل الله لكل شيء سببا ، أليس من سنة الله في عباده ألا تتجه الارادة البشرية الى حركة تصدر عن المريد الا بعد تصور غاية تعود الى ذاته ، وبعد اليقين او راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل ؟

فان كان الاجل يذهب فى مساواة الآلام الروحية ، والعمر ينفد فى مناهدة (٢) الاوصاب البدنية ، فماذا يقصدون من اعمالهم ، وان كان يوجد فى ابناء جلدتهم ، وسوى ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على ايلامهم ، وممانعتهم فى مقاصدهم ، وصدهم عن السعى فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين ، ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع والشماتة والتشنيع ، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة . . فما الذى يبتغون من جدهم وكدهم ؟ . لا لذة تجتنى ، ولا ألم يتقى . . فما الباعث القوى الذى غلب الاهواء ، ولم يضعفه جهد البلاء ؟

حب المحمدة

نعم أودع الله فى الانسان ميلا أقوى من كل ميل ، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الانواع ، وهو : (حب المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق)

أقول هذا تفاديا من حب المحمدة من اى وجه حقا كان أو باطلا ، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء ، والظهور بمظاهر الاخيار ، مع تبطن سرائر الاسرار ، فان هذا من أسوأ الخلال ، وانما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة . المحمدة هى الغذاء الروحانى ، والمقوم النفسانى . . وكلما قرب الشخص من الكمال الانسانى تهاون بالشهوات أو ازدرى باللذائذ الحسية ، وقوى فيه الميل

---

(١) مناهدة : ناهده أى ناهضه ورافعه ، والمعنى مدافعة المتاعب

الى المحمدة الباقية ، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الاعمال

تأمل ، ان الفاضل يرى له فى هذا العالم أجلين أقصرهما الاجل المحدود من يوم ولادته الى نهاية العمر المقدر ، والآخر أبعد من هذا نهاية ، وبدايته عندما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الانسانى ، وغاية هذا الاجل عندما يمحى أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ

فللروح الفاضلة وجودان : وجود فى بدنها الخاص ، ووجود فى جميع الابدان ، وهو مايكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل .. ولا ريب أن هذا الاجل الطويل ، وهذا الوجود العريض ، خير من ذاك الاجل القصير ، وذاك الوجود الكز (١) وحقيق بالانسان ان يبيع ما هو أدنى بالذى هو خير

يطول بى الكلام فاقصر ، ان الله الذى وهب كل نوع ما به كماله ، وضع فى جبلة البشر ميلا الى الحمد ، وألهمهم تأدية حقه لمستحقه ، ألم تر انطلاق الالسن فى كل أمة بالثناء على كل من كان سببا لها فى مجد ورفعة ، أو نهوض من سقطة ، أو توحيد كلمة ، أو تجديد قوة ، أو كمال فى فضيلة ، أو تقدم فى علم أو صنعة ، ويرسمونه فى الالواح ، ويسجلون مديحه فى بطون التواريخ ، ويرفعون له الهياكل والتماثيل ، ويحفظون له ذكرا حميدا يتناقله الابناء عن الآباء ، حتى ينقرضوا وينقرض العالم

تقدير العاملين

اذا جحدت الامة حق العامل لها ، أو قصرت فى

(١) الكز : اليابس والمنقبض ، والمراد هنا مالا خير فيه

استحسان عمله ، ضعفت الهمم ، وقل السعى فى المصالح العامة ، وانقبضت الايدى عن تعاطيها ، فهبطت شئون الامة ، فافترقت وماتت

ان الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب ، فاذا استوى لدى الامة الحسن والقبيح ، والطيب والخبيث ، والفضيلة والرذيلة ، والمصلحة والمفسدة ، وفقد منها التمييز ، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ، ولم تعرف معروفا ، ولم تنكر منكرا ، سلبت آحادها الميل الى المعالى والكمالات ، وكان هذا اشد نكاية بها من جور الظالمين ، وتغلب الغالبين .. ظلم الظالم لا يدوم ، وسطوة الغالب لا تثبت ، اذا كان جمهور الامة يقابل الاحسان بالاعتراف ، والفضل بالحمد ، فانه يوجد منها من يشترى هذه المكافأة بتخليصها وانقاذها . . واما فقد هذا الاحساس الشريف ، فهو اشبه علة بالهرم ، لا عقبى له الا الموت والفناء

كيف لا يكون المديح الحق نعمة على النفوس الانسانية ، يسعى اليها الاعلون من بنى الانسان ، وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك) ، وكيف لا يكون حقا تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الاعمال الصالحات ، كما سوغ لنبيه ذلك فى قوله « وأما بنعمة ربك فحدث »

قلب طرفك فى تواريخ الامم أقصاها وأدناها ، تجد برهانا قاطعا على أن الامة متى بخست قيم الاعمال العالية ، وازدرى فيها شأن الفضيلة ، فقدت مابه قوامها ، وانهدم بناؤها ، وذهبت كما ذهب أمس ، ولا جرم أن الكفران مقرون بزوال النعم

الشرف

كلمة يهتف بها اقوام مختلفة من الناس ، الا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون .. فئة ترى الشرف فى تشييد القصور ، والتعالى فى البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات ، وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الالبسة وأنواعها ، والتحلى بحلى الجواهر الثمينة ، مرصعة بالاحجار الكريمة ، كالماس والياقوت والزمرد ونحوها

وفئة تتخيل الشرف فى الالقاب والرتب ، كالبيك والباشا ، أو فى الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كالاول من الصنف الفلانى ، والثانى من الدرجة الفلانية ، حتى انك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بنى ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصرا ، ويرفع بناء ، ويزخرف بيتا ، ويقيم له حراسا من المماليك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك انه نال مجدا ابديا وفخارا سرمديا ، وصح لحاله ان يعنون بعنوان الشرف

وتجد الاخر يذهب فى الكسب أشنع مما يذهب الاول

ليكتسى برفيع الثياب ، ويتزين بأجمل الحلى ، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لا يدانى فيها ، ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه .. ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره ، بالفكر فى وسيلة ينال بها لقبا من تلك الالقاب ، أو يحصل بها وساما أو يستفيد وشاحا .. وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها ، وان افضت الى خراب بلاده ، أو تذليل أمته ، أو تمزيق ملته ، وعنده انه بلغ الذروة من معنى الشرف

أوهام لا حقائق

نحن نرى هذه الاوهام قائمة مقام الحقائق فى اذهان كثير من الناس ، ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم ، حتى عموا عن ادراك أخطائهم وانحرافهم عن الصواب فى وهمهم .. ماذا يجد من نفسه المباهى بقصوره ، وولدانه وحوره ، لايحس من أنه وان حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ، فذاته التى هى أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئا من الكمال ، وأن جميع ما حصله أجنبى عنه ، وليس له نسبة اليه الا نسبة العناء فى تحصيله .. الا يرى أن كثيرا ممن بلغ مبلغه أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم .. فان لم تكن على جانب من الكمال الانسانى ، انخرطت فى سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم فى القلوب منزلة ولا فى النفوس مكانة

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه اذا تجرد منه وخلا بنفسه ، ان لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال .. الا يكون هو وعراة الفقراء سواء ، والا يجد من

سره عند المفاخرة أنه يجول مع الفانيات وربات الخدور ، فى ميدان واحد

ماذا يتصور الزاهى برتبته ، المعجب بوسامه ، ان لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته ، على حال تجل ، أو كمال يبجل .. أليس يشعر أنه لو سلب الوسام ، أو نزع عنه الوشاح ، يعود الى منزلته من الاحتقار ، فان نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه ، أليس ذلك تعظيما للقب لا للملقب به .. ألا تكون هذه الكرامة عارضا سريع الزوال ، بل رسما ظاهرا لا يمس بواطن القلوب ؟!

حقائق لا أوهام

نعم لهذه الالقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر ، اذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه ، وكان اللقب دليلا عليهأو مشيرا اليه ، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار اذا تقدمها فعلة يمقتها العقلاء من النوع البشرى ، وكان الوسام أو اللقب عنوانا على ما اقترف كاسبه ، وعلامة على ما احترم

انظر وتدبر ولا تخطىء فما أنت من الصواب ببعيد .. أن عثمان الغازى الذى لقبه أعداؤه « بأسد بلاونة » نال رتبة ومنح لقبا ، وحظى بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء فى دولته بعد ما دفع بروحه للموت فى المدافعة عن ملته ، وجاهد فى اعلاء كلمة دينه ، بما شهد له الاعداء والاصدقاء ، وأن بعض الامراء فى ديار اسلامية لقبوا بألقاب شريفة من دولة كدولة الانجليز جزاء لهم على ماتقدموا أمام جيوش اعدائهم ، لافتتاح بلادهم ، حتى مكنوا الانجليز من ديارهم ، وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد فى ايجاد الوسائل لخروجهم منها .. اين موقع

النيشان من صدر عثمان باشا الفازى من موقعه على صدور أولئك المخدوعين ، أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذى جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه

ماذا غر أولئك الواهمين على اختلافهم .. الا يعلمون ان الثياب المعلمة بالدم ، الموشاة بالنجيع ، الملونة بالمهج ، هى التى حفظت للابسها ذكرا حسنا لا ينقطع ، وأثرا مجيدا لا يمحى .. ان الذين ضرجوا بدمائهم فى طلب المجد للهم ، هم الذين خشعت لذكرهم الاصوات ، واجمعت على فضلهم خواطر القلوب . ألم يصل اليهم ان الذين قضوا نحبهم فى غيابات الجب ، وانتهت حياتهم فى ظلمات السجن ، لطلب حق مسلوب أو حفظ مجد موجود هم الذين ذكرهم الى شرف الشمس الاعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الاسماء . أظن أن الذين كانوا فى الغرفات العالية ينظرون الى جناتهم وحدائقهم ، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم ، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا ، لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم فى حياتهم شأن ، الا ما هو محصور فى دوائر بيوتهم . ولا يختلف عنهم اولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخز والديباج .. ذهبوا وذهبت معهم اكسيتهم ، فارتدوا من حيث اتوا لا يعلم متى جاءوا الى الدنيا ، ومتى انكشفوا عنها

هل سمعنا أن أحدا يذكر بين بنى البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا ، نعم يقولون علم وعمل ، واعطى وبذل ورفع ووضع ، وجاهد وكافح ، واباد وابقى ، وما يشاكل ذلك من الاعمال التى لها اثر ثابت .. فاذا ذكر الاسكندر الاكبر هل يخطر بالبال ان كان له قصر اولا ..

اى ابله يطلب سيرة نابوليون الاول فى آثار قصر كان يسكنه ، او فى خرق ثياب كان يلبسها ؟ .. وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعد ما شيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا ؟ .. أو كان جميع ما ينالون من ذلك بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصى

خدع قوم بالاحلام ، وغرتهم الاوهام ، ففرطوا فى شئون بلادهم ، وباعوا مجدها الشامخ بتلك الاسماء التى لا مسمى لها .. وزعموا وان لم تطاوعهم ضمائرهم انهم رقوا ملكانة من الشرف

فلو انهم اصغوا لما تحدثهم به سرائرهم ، وتعنفهم به خواطر افئدتهم ، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم ، لعلموا انهم فى اخس المنازل وابعد المزاجر ، وادركوا خطأهم فى معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب فى طلبه.. ولو احسوا بما رزئت به اوطانهم ، وما لصق من الذل والعار بذراريهم ، لطرحوا الوشاحات ، ونبذوا الوسامات ، ولبسوا اثواب الحداد ، ونفروا خفافا وثقالا لطلب الشرف الحقيقى

الشرف والشريف

الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع ، وحددتها عقول الكاملين من البشر .. وليس لذى شاكلة انسانية ان يرتاب فى فهمها ، الا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة

الشرف بهاء للشخص ، يحوم عليه بالانظار ، ويوجه اليه الخواطر والافكار ، وجمال يروق حسنه فى البصائر والابصار ، ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن فى امته او بنى ملته ، أو فى النوع الانسانى عامة

كانقاذ من تهلكة ، او كشف لجهالة ، أو تنبيه لطلب حق سلب ، او تذكير بمجد سبق او انهاض من عشـــرة ، او ايقاظ من غفلة ، او ارشاد لخير يعم ، او تحذير من شر يغم ، او تهذيب اخلاق ، ، او تثقيف عقول ، او جمع كلمة وتجديد رابطة ، أو اعادة قوة وانتشال من ضعف ، أو ايقاد حمية

من اتى عملا من الاعمال له اثر من هذه الآثار فهـــو الشريف ، وان كان يسكن الخصـــاص والاكواخ ، ويلبس الاسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على تراب الفقر ، ويتوسد نشز الارض ، ويضرب فى كل واد ، ويتردد بـــين الربى والوهاد .. هذا له حلية من عمله ، وزينـــة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدى اليــه ضالة الالباب ، وتائهةالافئدة .. تعرفه المشاعرالحساسة ولا تنكره ، وتكتنفه القلوب المتطايرة اليه ولا تنفصـــل عنه .. له من روحه قصور شاهقة ، وغرفات شائقة ، ومناظر رائقة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، لا يكاد يخفى حتى يظهر ، ولايكاد يستر حتى يبصر .. اليه يصـــعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، يرفعه الى اعلى عليين ، حياة طيبة فى القلوب وعزة مشرقة فى جبهة الزمان « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون »

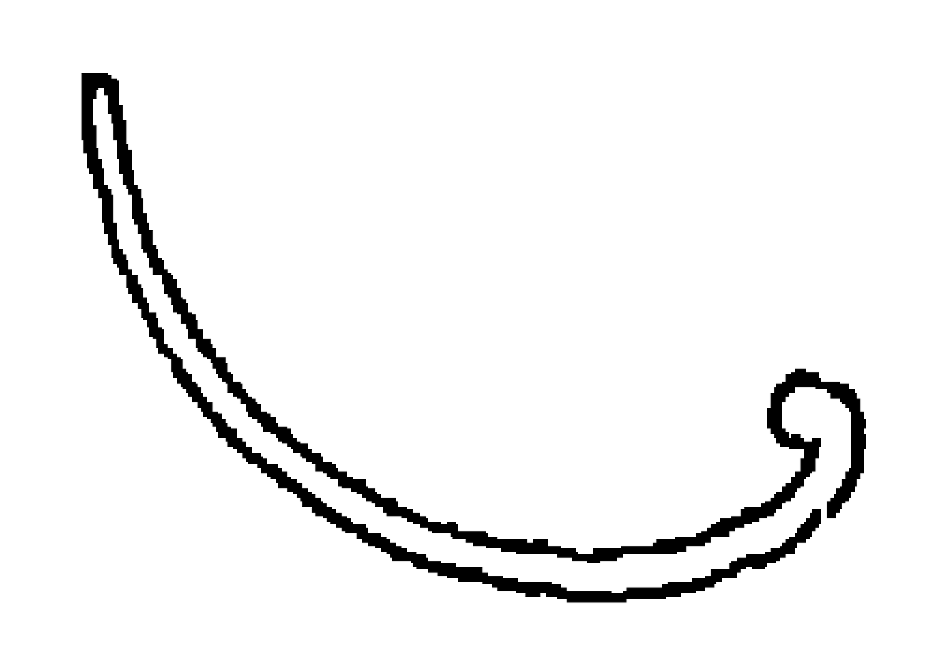
نعم قد ينبعث عليه من ارباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه ، فيسلقونه بالالسنة ، ويرشقونه بسهام اللوم ، ولا تروق فى أنظارهم أزهار أعماله ، ولا أنوار مزاهره ، لبعدها عن فهمهم ، وغرابتها على حواسهم ، لما الفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة ، التى عدوهـــا شرفا ، وحسبوها مجدا ، وقد بينـــاها كما كشفتهـــا

الشرائع وآراء العقلاء .. انما مثلهم مثل الجعل(١) ينفر من رائحة الورد ، ويألف روائح القذر

لا يبعد ان يسخر بالعامل الفاضل اناس لاخلاق لهم ، او يقصده بالاضرار من لا ذمة له ، ولكنهم بأنفسهم يهزأون ، وبمصالحهم يضرون ، ولا يطول عليهم الزمان فى هذا العمى .. بل لا يلبثون اذا بدت الثمرة الشهية ان يهرعوا لاقتطافها ، ويطعموا من جناها ، ولا يسعهم بعد ذلك الا الحمد لغارس الشجرة ، وحافظ الثمرة ، وان كان دونهم فى تلك الزخارف التى لاقيمة لها فى نظر العاقل .. ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندما على الخطيئة ، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم

هكذا تمنح العناية الالهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف ما دام حيا ، فاذا غابت شمسه عن افق هذا العالم لم تحجب اشعة ضيائه التى فاضت منه على نجوم هاديات ، وبدور منيرات

نعم يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه ، ولكنه قائم فى الافئدة ، شاهد على الالسنة ، حى يرزق عند ربه، ونعمة الحياة حياته ، ولمثل هذا فليعمل العاملون



---

(١) الجعل بضم الجيم وفتح العين نوع من الخنافس ، وقد يطلق على الرجل الاسود الذميم أو اللجوج

الجـــبن

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة، قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم »

« قرآن كريم »

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض افراد الانسان من أعمال تحير الالباب ، وتدهش الافكار ، ينظر اليها ضعفاء العقول ، فيعدونها معجزات ، وان لم تكن فى أزمنة النبوات .. ويحسبونها خوارق عادات ، وان لم تكن من تحدى الرسالات . وقد ينسبها الغفل الى حـــركات الافلاك ، وأرواح الكواكب ، وموافقة الطوالع .. ومن القاصرين من يظنها من أحكام المصادفات ، وقذفات الاتفاق، عجزا عن ادراك الاسباب ، وفهم الصواب . وأما من آتاه الله الحكمة ، ومنحه الهداية ، فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه ، وعظمت قدرته ، أناط كل حادث بسبب، وكل مكسوب بعمل ، وانه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ، ومقدرة روحانية ، يكون بهما مظهرا لعجائب الامور، وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية .. وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء ، والثـــواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب

علة العلل

اذا رجع البصير الى القياس الصحيح ، رأى فى تشابه القوى الانسانية ، وتماثل الفطرة البشرية ، ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك .. وأرشده الفكر السليم الى أن فضل الله قد أعد كل انسان للكمال ، ومنحه مايكون به مصدرا لفضائل الاعمال ، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينها الا للنظر الدقيق . هذا وقفة الحيرة .. استعداد فطرى للكمال فى خلقه الانسان ، ميل كلى فى كل فرد لان ينفرد بالفخار ، ويمتاز بجلائل الآثار ، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى ، لا يخيب طالبا ، ولا يرد سائلا ، اذا صدق القاصد فى قصده ، وأخلص السالك فى جده .. فما العلة فى اخلاد الجمهور الاعظم من بنى الانسان الى دنيات المنازل ، وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم اليه الميل الغريزى ، خصوصا ان كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ، ترجو ثوابا على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقابا على ارتكاب الخطيئات ، وتعترف بيوم العرض الاكبر ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ماذا يقعد بالنفوس عن العمل الصالح؟ .. ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل ؟ .. اذا ردت المسببات الى اسبابها ، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها ، وجدنا لهذا علة هى أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل ، هو « الجبن »

أضرار الجبن

الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها .. هو الذى قطع روابط الامم فحل نظامها .. هو الذى أوهن

عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم .. هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين .. يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل .. يوطن النفس على تلقى الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ، ويوطىء الظهور الجباشية لاحمال من المصاعب ، أثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والاقدام

الجبن يلبس النفس عارا عند كل روح زكية وهمة عالية ..

من يهن يسهل الهوان عليه

مالجرح بميت ايلام

لا بل يتجرع مرارات الموت فى كل لحظة ، ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له الا عين تبصر الاعداء ، ولا ترى الاحباء .. ونفس لا يصعد الا بالصعداء ، واحساس لا يلم به الا ألم اللأواء . هذه حياته : أضاع كل شىء فى القناعة بلا شىء . وهو يظن انه أدرك البغية ، وحصل المنيه (١)

ماهو الجبن ؟

ما هو الجبن ؟ .. انخذال فى النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها ، وهو مرض من الامراض الروحية ، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيعية .. وله أسباب كثيرة ، لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع الى الخوف من الموت

الموت مآل كل حى ، ومصير كل ذى روح .. ليس للموت وقت يعرف ، ولا ساعة تعلم ، ولكنه فيما بين

---

(١) المنية : بضم الياء المطلوب ، والمنية بضم الميم الامنية والامل

النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل لحظـــة ولا يعلمه الا مقدر الآجال جل شأنه « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت »

يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم ، والذهول عمـــا أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لاجله .. نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ما جعله ألله واقيا للحياة ـ وهو الشـــجاعة والاقدام ـ سببا فى الفناء ، يحسب الجاهل أن فى كل خطوة حتفا ، ويتوهم أن فى كل خطوة خطرا ، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية ، وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم ، وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم تكشف له أن تلك المخاوف انما هى أوهام وأصوات غيلان، ووساوس شياطين .. غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ، ومن كل خير حرمته

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام ، لتغتال به نفوس الناس ، وتلتهم به الامم والشعوب .. هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة ، لا شقاء الاوهو مبدأه ، ولا فساد الا وهو جرثومته ، ولا كفر الا وهو باعثه وموجبه .. ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات ، هازم الجيوش ، ومنكس الاعلام ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة

ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية ، أليس هو الجبن ؟

ماذا يبسط أيدى الادنياء لدنيئة الارتشاء ، أليس هو الجبن ؟

ربما تتوهم بعد المثال فتأمل ، فان الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت ، وهو علة الجبن . سهل اعليك ان تعتبر هذا فى الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان .. الجبن عار وشنار على كل ذى فطرة انسانية خصوصا الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤملون أن ينالوا جزاء لاعمالهم أجرا حسنا ومقاما كريما

واجب المسلمين

ينبغى أن يكون ابناء الملة الاسلامية ـ بمتقضى أصول دينهم ـ أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة « الجبن » فانها اشد الموانع عن أداء ما يرضى الله ، وانهم لا يبتغون الا رضاه

يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت عـــلامة الايمان ، وامتحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول فى ذم من ليســـوا بمؤمنين : « ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب » ..

الاقدام في سبيل الحق ، وبذل الاموال والارواح فى اعلاء كلمته أوسمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الالهى بأن تقام الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتكف الايدى ، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى اعلاء كلمة الحق، والعدل الالهى .. بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتد بغيره عند فقده ، **لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامى وبين الجبن فى قلب واحد .. كيف يمكن هذا**

وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام ، وان عماده الاخـــلاص لله والتخلى عن جميع ما ســـواه لاستحصال رضاه

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء، ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة فى الأجل ، ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه .. المؤمن من لا ينتظر بنفسه الى احدى الحسنيين ، اما أن يعيش سيدا عزيزا ، واما أن يموت متربا سعيدا ، وتصعد روحه الى أعلى عليين ،ويلتحق بالاكرمين والملائكة المقربين

من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه ، وهو ليس من الايمان فى شىء .. كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه فى دعوى الايمان ، لهذا نؤمل من ورثة الانبياء «العلماء» أن يصدعوا بالحق ، ويذكروا بآيات الله ، وما أودع الله فيها من الامر بالاقدام لاعلاء كلمته ، والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك

وفى الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة « الامـر بالمعروف والنهى عن المنكر » زمنا قليلا ، ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف واحيائها فى أنفس المؤمنين ، رأينا لذلك أثرا فى هـــذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر ، وشهدنا لها يوما تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر

فالمؤمنون بما ورثوا عن أســـلافهم ، وبما تمكن فى أفئدتهم ، من آثار العقائد لا يحتاجون الا لقليل من التنبيه، ويسير من التذكير ، فينهضوا نهضة الاســود فيستردوا مفقودا ويحفظوا موجودا ، وينالوا عند الله مقاما محمودا

الانتــقاد

((ما وعظك مثل لائم ، وما قومك مثل مقاوم))

حكمة مأثورة

الانتقاد نفثة من الروح الالهى فى صدور البشر ، تظهر فى مناطقهم سـوقا للناقص الى الكمال ، وتنبيها بدفع الكامل من موقفه الى طلب الغاية مما يليق به

الانتقاد صائح من اللائمة تتنفس عنه القلوب ، وتنفتق به الالسنة ، لتقريع الناقصين فى اهمالهم ، ودفع طلاب الكمال الى منتهى ما يمكن لهم :

جعل الله للحياة قواما وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقلى سلطان وجوده العقل ، فان صح السلطان ونفذ حكمه صلح ذلك الكون وتم أمره . ان الله لم يهمل العقل من ناصرين عـزيزين حاذقين : أحدهما له ، والثانى له وعليه :

أما الاول ، فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاصطفاء للامثل

وأما الثانى ، فما ألزمه الخالق من الانقبـاض عن الدون ، والنفور عن منازل الهوان

فذاك يحدوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب، وهذا يزعجه الى الهرب ، وكل منازل العقل صعود ، الا ادناها فعجز يقف بأهله على شفير العدم .. وكل منزلة بعد الادنى دنو من الكمال ، غير أن ما يسمو اليه العقل ، أشبه بما ينبسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية .. فليس يصل منتجع الكمال الى مقام الا ويرمى بطرفه الى أبعد منه ، ومساقط العجز ، كثيرة الالام ، تستوكرها أفاعى الهموم ،وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل .. كلما التفت اليه راعه هول منظرها ، فتحفز عنها الى منجاة منها ، ولا يزال يزجيه الخوف وتطير به الرغبة حتى يدنو من رفرف السعادة الاعلى . ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر خداعة ، فتخالها طلبتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدرى أن بها هلكتها ،وفيها منيتها .. فمثلها مثل الطير ينظر الى الحب المنشور ، ويغبى عن الفخ المنصوب ، فاذا سقط للالتقاط وقع فى يد الحابل ، أو مثل المفترس يلوح له لائح الفريسة ولا يشعر بما أعد له صائده .. فاذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله ، واعجله عن مأكله

لهذا وكل الله بالعقل منبها لا يغفل ، وحسيبا لا يهمل ، وكالئا لا ينام ، يزعج الواقف ، ويمسك الواجف .. ما سكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الا هتف به : أن ماتطلب أمامك .. ولا أوغل موغل فيما لا ينفعه ، الا صاح به : تعست الجدود ، وأضرعت الخدود ، فخفض من سيرك ، وقوم من سيرك، والا فالذل مقيلك ، والهلكة مصيرك ..

ذلك الواعظ الحكيم والمؤدب العليم هو « الانتقاد »

ينبث فى الفؤاد ، ثم يتجلى فى البيان ، على اللسان ، فيفقه العالمون ، ولا يهمله العاملون « فطرة الله التى فطر الناس عليها »

ألوان من الناقدين

أودع فى كل ناطق بصرا بشأن غيره ، أشد احاطة من بصره بشأن نفسه ، ومكن كلا من تمييز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها .. ثم دفعه للنطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان ابصار بعدد الناظرين اليه ، العارفين بما عليه عمله .. كلها كبصره تريه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ، وجعل الله الناقدين أقساما : فمنهم ناظر الى الفضل لا يعدوه فهو يذكر المنقبة ، ويغض عن المثلبة .. ومن هذا القسم المفرطون فى الوفاء من الاصدقاء .. ومنهم رقباء النقائص وجواسيس العيون يروون المساوىء ، ويسكتون عن الحسنات .. وفيهم الحساد ، وأهل الاحقاد ، ومنهم ناظرون بالعينين ، عارفون بالوجهين ، يذكرون للكمال نبله ، ويلزمون النقص ويله .. وهؤلاء فى أعلى المنازل ، وفيهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله

ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون ، ويهرفون بما لا يعلمون ، وهم فى أخس المنازل ، وليس فى الناس الا من تجتمع هذه الاقسام له أو عليه . وماجعل الله بشرا يسلم ويحرم من بعضها ، فكأنها التى قال فيها « وان منكم الا واردها » وكلها صدى صوت الكمال الالهى الاعلى ينادى الكاملين أن يستزيدوا ، والناقصين أن يستجيدوا

هل لجاحد أن يصغر قدر الحسيب على أى وجه كان حسابه ؟ أو لجاهل أن ينكر حكمة الله فى ايجاده ؟ او لواهم أن يذهب الى أنه ليس من نظام الفطرة ؟ ٠٠ وانى أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك وأنت غربى مثلا ، ان ملك الصين غدر بأحد أوليائه ، أو استصفى أموال رعيته ، أو كلفهم مالا يطيقون احتماله ، أو أهمل فى مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها اعداؤها أو جبن عن حادث الم به وكان يستطيع دفعه .. الا ترى من قلبك امتعاضا عليه ، ومن نفسك ازدراء بعمله ، وفى لسانك لهجة بلومه ، وهو منك على بعد المشرقين ؟!.. ولئن وصلت اليك روايات عدله ورعايته حقوق بلاده وحفظه لذمامه ، وجدت اليه من فؤادك ميلا ، ومن رأيك لعمله استحسانا ، ومن اسانك عليه ثناء

ولو شئت احتكمت معك الى مذاهب ميلك عندما تنظر فى تاريخ من سبقك فان بدا لك التنظر فضلا فى سيرة ، أو خزية فى جريرة ، ألست تجد من نفسك انبساطا الى الفضائل ، وانقباضا عن المخازى ، ثم انطلاقا الى نشر ما وجدت ، ثم رأيت عضدا منك لاحدهما كأنه قائم يستنصر فأنت تنصره ، وتغيظا على الاخر كأنما يدعوك لعونه فانت تخذله

لا جرم أن النقد حافز طبيعى يوقظ السابقين واللاحقين ، وكل نقد حشوه لوم حتى ما كان منه مقصورا على بث المحمدة والاقرار بالفضيلة ، فان حمد الكامل عذل للناقص على التقصير ، وازعاج للمحمود ، وزجر له عن ملابسة الاعياء .. فكأنى وصاحب الثناء يقول : الا أيها القاعدون انهضوا ٠٠ ويا أيها المبرزون أركضوا ٠ واحذروا الوقفة فانها بداية القهقرى : تلك أقلام الحق ، فى السنة الخلق ، لا يصم عن اندائها الا أصم ، ولايغنى عن انذارها الا غبى

على ذلك قام النظام الانسانى ، فلولا الانتقاد ما شب عالم عن نشأته ، ولا امتد ملك عن منبته .. أترى لو اغفل العلماء نقد الآراء واهملوا البحث فى وجوه المزاعم أكانت تتسـع دائرة العلم ، وتتجلى الحقائق للفهم ، ويعلم المحـق من المبطل ؟ .. أو لو أغمض الاصدقاء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر فى قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقارع النقد ، أكانت تستقيم محجة ، وتعتدل حجة ، او تعظم قوة ؟ .. كلا بل كان يتحـكم الغرور ، وتتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلا ، والنظام خللا .. تلك سنة الله فى الاولين ، وهى كذلك فى الاخرين

جزى الله الاعداء كل خير !

فالمغبوط فى حالة من يستمع قول اللائمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ، ويتصفح وجوه المتنكرين .. ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، فيما يملك الحازمون ، أنفس لديهم ، من الانحاء عليهم ، بما ينبههم اذا غفلوا ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا . وكما توجد نفائس الارشـاد عند الاولياء ، توجد عند الاعداء ... بل هى عند هؤلاء أجود ، فانهـم يرفعون للمعايب اعلاما بينة حتى لا تعود فيها شبهة نظر . وأحجى بالعقل ألا يمج من الانتقاد شيئا حتى أكاذيب أهل الضغينة ، ووجوم ذوى السـخيمة ــ على مخالفتها الحقيقة ــ فان أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة الحصون تقام فى الثغور زمن السلم ، حذرا مما عساه يطرقها عن عدوان المغيرين عليها

وأقل ما يكون من العاقل فيها أن يقول « قيل فينـ

ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا » فهى وأن لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتا كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقا ، والباطل حقا .. فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه ، وجاء بغير الحق فى ثلب غيره ، فقد أفسد نفسه لصلاح عدوه ولله ما يقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير فلولاهم ما نزلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظائر القدس ..

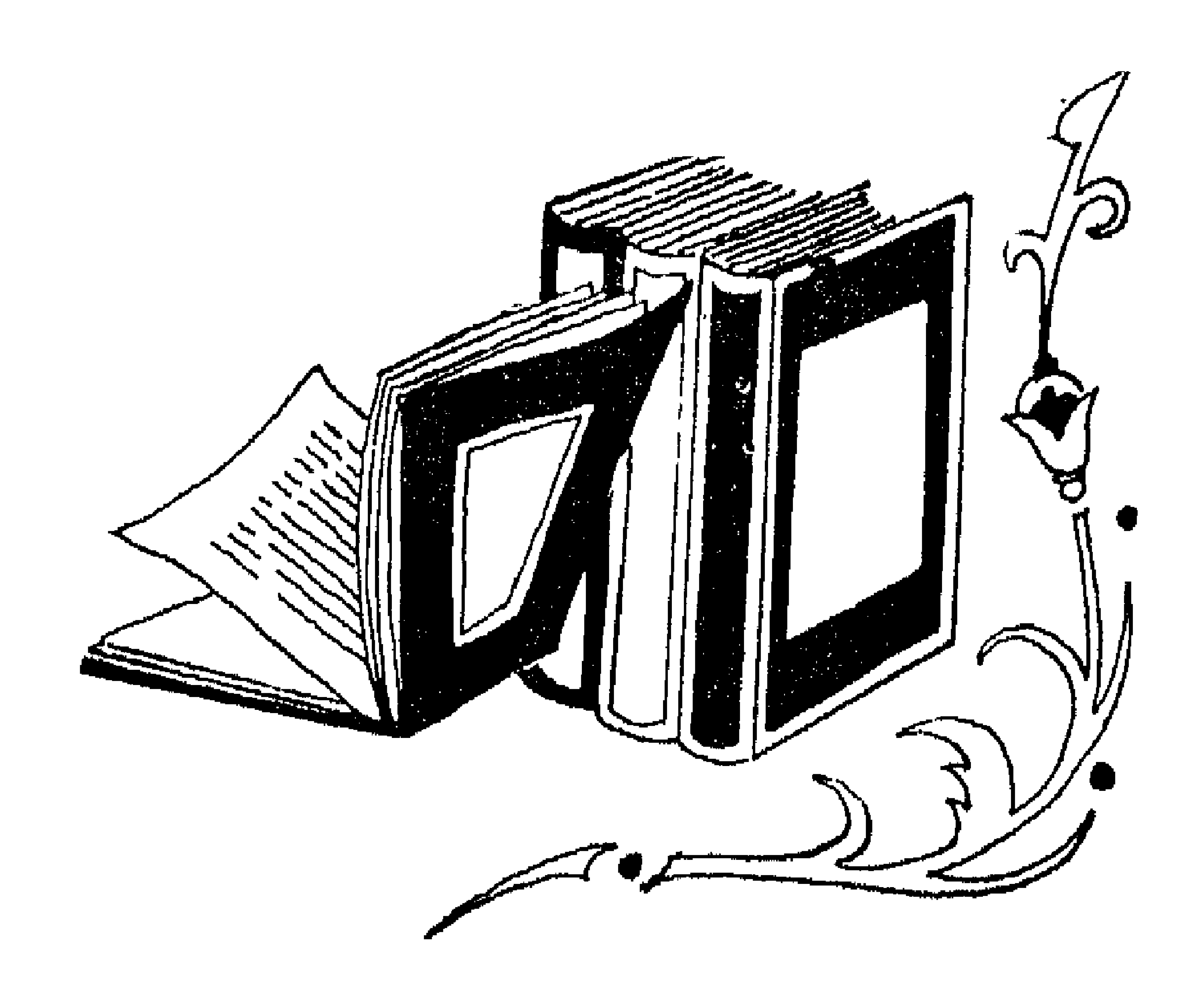
هذا وقد كفر قوم بنعمة الانتقاد فظنوا صنع الله فيه عبثا « نعوذ بالله » فوقروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا لأصابعهم فى صماليخهم (١) من صواعق زجره ، وقواصف نهيه وأمره ، وضربوا بينهم وبين أهل النقد حجبا ، وأقاموا دونهم أستارا ، وخيل لهم الجهل أن ضممهم عنه ، يقيهم منه ، وأن قبوعهم فى أهب الغفلة (٢) يدرأ عنهم سهام اللوائم ، كأنهم لا يعلمون أن ذلك وقوع فى أشد مما خافوا ، واندفاع الى شر مما رهبوا .. فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأى الصائد غمس رأسه فى الماء ظنا منه أنه متى أغمض عن طالبه أغمض الطالب عنه، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده .. ومن ثم تجدهم فى عمى عن شئونهم وتخبط فى اعمالهم ، قد لزموا خطة من الهوان لو أبصر عقلهم بعض أطرافها لماتوا جزعا من هول ما فيها .. كل ذلك وسيوف الالسن وأسنة الاقلام لا تألو فى تقريعهم ، بل وصوت الحق الصريح يناديهم من أعماق ضمائرهم : بئس ما اشتريتم لانفسكم لو كنتم تعلمون .. وليهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم فى غفلة عن هذا بل لا يشعرون ..

أولئك الذين ختم الله على سمعهم ، وطبع على قلوبهم ،

---

(١) الصماليخ : جمع صملاخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على وسخها
(٢) الاهب : بضمتين جمع أهاب ككتاب وهو الجلد الذى لم يدبغ

فمرقوا من ناموس الفطرة الالهية فهم أموات الارواح ،
مضطربو الاشباح ولاتنشق عنهم قبور الخمول حتى ينشرهم
الله فى حياة اخرى يخضعون فيها للاحكام الكونية ، ويعملون
على السنن الالهية .. فلينتظروا أنا معهم من المنتظرين



من هو خائن الوطن؟

نقلت الجرائد الانجليزية نبأ ورد الى جريدة الستندارد من مدينة دونقلا ، ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أياما متواليات ، ومحصله (١) : ان الالسن تلهج فى مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الانجليزية بقدوم جيش محمد أحمد (٢) ، والحديث مستفيض فى جميع المعسكرات بأنه زاحف اليهم بجيشين ، أحدهما يأتى من الصحراء ، والآخر على شطوط النيل ، وانهم لابد أن يلاقوا منه صدمة شديدة لا قبل لهم باحتمالها .. وقد استولى بذلك الاضراب والتشويش على أفكار عساكر مدير دونقلا خوفا وفزعا . ولكن لما ايقنوا به واطمأنوا اليه من ان السلطان راض عن اعمال محمد احمد ، بل صدرت منه التنبيهات الى جميع المؤمنين فى تلك الاطراف

---

(١) هذا البحث من مقالات الامام وبحوثه فى جريدة «العروة الوثقى» التى اسسها مع السيد جمال الدين الافغانى فى باريس فى أوائل سنة ١٨٨٣ للدفاع عن الاسلام والمسلمين وبلاد المسلمين

(٢) هو الزعيم الدينى السودانى محمد أحمد المهدى من قبيلة الدناقلة ولد سنة ١٨٤٨ . وقد ظهر بدعوته سنة ١٨٨١ وانتشرت فى أرجاء السودان وانتصر على غوردن باشا وفتح الخرطوم ١٨٨٢ وتوفى فى ٢١ يونية ١٨٨٥ بحمى التيفوس وعمره ٣٧ عاما

بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وان يعتبروا الانجليز فى منزلة العدو الالد ويقاوموهم مقاومة الآيسين

كنا نعلم ان جميع المسلمين وسائر الوطنيين يرون من فروض دينهم السعى فى مكافحة سير الانجليز ، واقامة الموانع فى طريقهم بقدر الطاقه والامكان ، قياما بما يوجبه الدين والوطن ، ولا يحتاجون فى هذا العمل الشريف الى امر سلطانى .. فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية فى كل ملة وكل قطر من اقطار الارض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته ، وتبيح الموت دونه بل توجبه فى مدافعة الباغين عليه وتدعو كل ذى عقل لاخذ الحذر من حيل المحتالين ، والتوقى من الارواح الشريرة الخبيثة التى تتجلى فى اشكال من الصور منها ما يخطف برونقه الظاهر لب الالباب ، ويذهب بهاؤه الصورى بنور الابصار ، وهى منابع الشر ومصادر الفساد ومهب رياح الفتن والاختلال . تلك ارواح الاجانب ونفوس الاباعد الذين يهتكون حرم البلاد ويخفضون شئون العباد ويغمطون الحقوق ويفسدون الاخلاق ويذلون النفوس . المدافعة عن الوطن امر طبيعى وفرض معاشى يساعد فى دعوة الطبيعة اليه الميل الى الطعام والشراب فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم فى ادائه . نعم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها فى مزايا التواريخ عندما يمر النظر اليها على تماثيل الخائنين الذين تجاوزوا تخوم الطبيعة ، وصيغت لهم هياكل من الامن الابدى مسربلة بالخزى والعار السرمدى ... هكذا يعرف الشىء بضده

لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس ـ وكل ثمن تباع به

البلاد فهو بخس ـ بل خائن الوطن من يكون سببا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ، بل من يدع قدما تستقر فى تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذلك هو الخائن فى أى لباس ظهر وعلى اى وجه انقلب .. القادر على فكر يبديه ، أو تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الاعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن .. من لم يستطع عملا وأمكنه ان يرشد العامل وتهاون فى النصيحة فقد خان من سوف عمل اليوم الى الغد ، وتوانى فى تضليل كيد الاعداء بقول او فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة . وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على السنة الانبياء والمرسلين وممقوت فى نظر العالم اجمعين . ما اعظم جريمة الخيــــانة ... يأتى الزمان بطوله على كل شىء ، فيمحو اثره ويطمس رسمه الا وصمة الخيانة فلا تطويها الدهور ولا يخفيهـا تطاول العصور .. محيت أسماء العظماءوالملوك والسلاطين ولكن لم تمح اسماء الخائنين

لوث على وجه الزمان ودرن فى صفحة الامكان مكتنفة باللعنة محفوفة بالمقت الى ابد الابدين .. لايحيط القلم بوصف الخائن وما يتفيه من الشنائع ، ولكن النفوس مهما تدانت فى الادراك تشعر بعظم جرمه

***

كنا على يقين ولا نزال عليه ... ان الذات الشاهانية (١) وهى الاب الاكبر لعموم المسلمين وهى الكافلة للشريعـة المحافظة للدين هى اجدر الناس بالالتفـــــات الى حركة الاعداء فى البلاد الاسلامية ، وهى لا تألو جهدا فى تعويق

---

(١) يعنى شاهنشاد الامبراطورية العثمانية الخليفة السلطان عبدالحميد الثانى فى ذلك الحين

سيرهم واحباط اعمالهم .. ولا يمكن ان يطمئن للسلطان قلب وهو يرى ان امة عظيمة من أخلص الامم فى الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الاجنبية ، وأنه لحرج الصدر من أعمال الحكومة الانجليزية وعدوانهـا على الحقوق العثمانية والاسلامية والمصرية بلغت كبرياء الانجليز الى حد لا يحتمل ، فليس من الغريب أن تضيق بها الصدور ، وتفيض بالغيظ القلوب ، وتبلى منها دروع الصبر والجلد ..

فيا أيها المصريون ، هذه دياركم وأموالكم واعراضكم وعقائد دينكم واخلاقكم وشريعتكم ، قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا ، زحف العدو اليكـم تحت راية المحبة ، ثم قلب لكم ظهر المجن ، وتناول بيده الظالمة شئونكم العامة ، من عسكرية ومالية وادارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئا الا الحرمان من خدمة اوطانكم ، وانتم أحق بها .. وطالما دافعتم عنها فى الايام السـابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ولم يمح القوى الداخلية ، يطلب استمالة القلوب اليه ، وجمع النفـوس عليه ، فكيف اذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعـلامه ، وخلا له الجو من المعارضين . ماذا ترجون من مطاوعته ، وماذا تؤملون فى ارخاء العنان له ، وماذا تهـابون فى معارضته والاخذ على يده .. أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل ، فقد رايتم انه افسد شئونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرم رجالكم من الخير ، وافقر آلافا مؤلفة من العائلات ، ووهب من بلادكم لاعدائكم ، وأضر بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة فاغلق أبواب الكسب فى وجوهكم ، وقصد الى التدخل فيما يختص بأمـور دينكم ، ــ كالاوقاف ــ وعمد الى خرق سياجكم وازالة

قوتكم بطرد جنودكم ، وهذه أوائل اعماله ، فكيف يكون نهايتها .. فماذا تخشون منه ؟

هل تخشون ان تنقص اموالكم ، وثمرات كسبكم أذا اديتم حقوق وطنكم ، وحاربتم عدوكم ؟ . ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم ، وهو من عجيب الخواطر .. انتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الاموال والثمرات ، وفاضت العبرات وزادت الحسرات ، وان زدتم فى الخضوع زادكم عدوكم خسارا وأوسعكم خـــرابا ودمارا ، ان رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غنى الا افتقر ، ولا عظيم الا احتقر ، وان شئتم فانظـــروا مستقبلكم فى مرآة حاضركم ، واقرأوا حالكم فى تواريخ من سبقكم

هل تخشون اذا قمتم بفروضكم أن يأتى الخطـــر على حياتكم ؟ لعل هذا الوهم بخيال طائفة منكم يعرض لكم . ولكن فلتعلموا أن عدوكم فى هـــذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة ... الدول متألبة عليه ، يترقب منها فى كل آن مطالبته بنتائج أعماله ومحاسبته على عواقب تصرفه ، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية .. انه مسرع فى سيره ، منطلق الى مقصده بغـــاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قرارا مكينا ، ومقرا أمينـــا ، ولا يخفى عليكم أن المسرع فى جريه يكبه على وجهه عثرة فى مدرة(١)،فلو ظهرت منكم فى هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخذة طفيفة ، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضا عن سيره فيكم ، وجهرتم بذلك لرأيتـــم أن ماءه سراب ، وسحابه جهام (٢) ،وسيفه كهام،،واوقفتم سيره واستعليتم

---

(١) المدرة الحصاة الصغيرة

(٢) الجهام : السحاب الخفيف الذى لا ماء فيه والكهام السيف غير القاطع

بقوتكم على ضعفه ، وأقمتم للدول حجة قوية فى كبحه ورد جماحه ، والزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة ، ونزع قوة العمل من يد استبداده ، وتخويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق اوروباكافة. اما لو تركتم عدوكم حتى ينتهى لمقره ، ويقوى على امره ، ويدوخ السودان ، ويحيط بجيوشه أعالى البلاد المصرية « لا أناله الله ذلك » صعب بعد هذا تعريفه بقدره وايقافه عند حده ، وضعفت حجة الدول فى معارضته ، فان اقوم حجة للدول عليه هى عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة واصلاح ما كان يظن من الخلل فى مصر ، فلو تمكن عدوكم بسكوتكم من اظهار قدرته واقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم فقد فاز بالسيادة فيكم ، واصبحت دماؤكم واموالكم وجميع شئون حياتكم فى قبضة جوره . . !

فى امكانكم الآن ان تضروا بعدوكم وليس فى امكانه أن يضر بكم . فاذا مضى زمن انعكست القضية واصبحتم فى عجز عن مقاومته ، واصبح فى وسعه اذلالكم

أن كنتم تخافون الموت أو الاذلال ، فهل هما الآن على بعد منكم ؟ اليس يؤخذ منكم الابرياء بالشبهة الباطلة ، ويهانون ويذلون ، وكثير منهم يقتلون

ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم فى ابدانكم ، ويفعل باخوانكم فى ديار غير دياركم ، ثم لا يبقى على احد منكم .. فأنتم أصحاب امركم ، وهذا قصده اليكم .. وفى امكانكم ان تستعينوا الله فى التحصن من خطر آجل ، بدون ضرر عاجل .. فان شئتم فارحموا أنفسكم ، والا فأنتم ساقطون ، فيما منه تخافون

ياقوم يؤثر فى كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محبب

حتى لعدوه ، والجبان مبغض حتى لابيه وأمه .. تعلمون انه ما عز قوم بالخضوع ولا استهين شعب بالاباء ، لماذا تعدون أنفسكم فى الدرجة الدنيا عمن سواكم . الستم تتشابهون فى الخلقة مع أعدائكم ، الستم تمتازون عنهم بالايمان الصادق ، والعقائد الصحيحة ، الستم تنتسبون الى أولئك الابطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ، الستم تدعون انكم اشرف عنصرا وأكرم جوهرا ؟ فان قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعداءكم .. ان كان الموت فهم يخشونه ، ان كان الخسار فهم يرهبونه ، انهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون

لأى شيء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ما ليس له ولاى سبب لا تقدمون بشيء من شهامتكم فى حفظ ما هو لكم ؟ ان هذا لشيء عجاب ، هل نذكركم بقول شاعركم (١) :

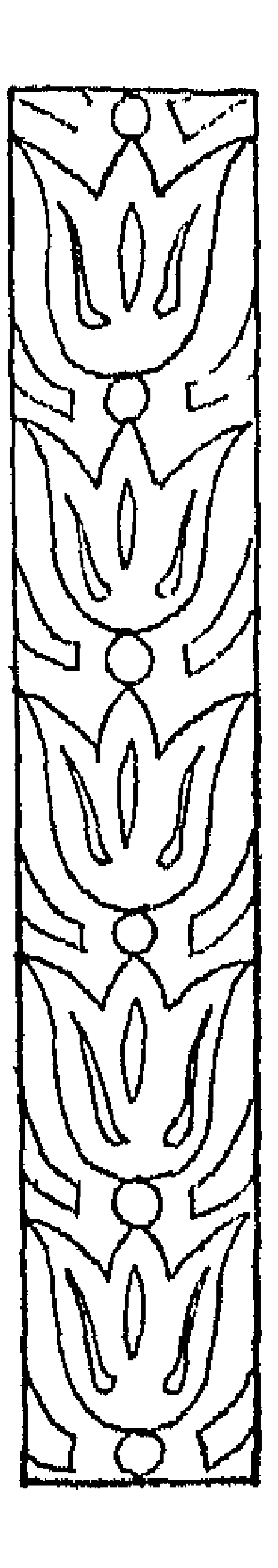
لايسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبه الدم

ليس هذا مقام التذكير ، وليس مكان المباراة فى المجد والمسابقة الى معالى الامور .. انما الكلام الان فى الدفاع عن الحياة وصيانة ضرورات المعيشة ، فان لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر الذى رأيتم بوادره ونعوذ بالله أن تدرككم أواخره ... استغفر الله لا تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة

لا يزال دينكم يترقب منكم حمية وغيرة لدفع الغائلةعنه

---

(١) هو ابو الطيب المتنبى والبيت من قصيدة هجابها ابراهيم بن كيغلغ سنة ٣٣٠ هـ وهو ملىمدينةطرابلس بلبنان . وكان رجلا جاهلا عرض للمتنبى فى طريقه الى دمشق فلم يلحقه ، فنظم هذه القصيدة . وهى من عيون قصائده لما احتوته من الحكم والمواعظ



الإسلام لماذا انتشر بسرعة؟

سرعة انتشار الإسلام

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة ، فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك .. لكن ما يدهش عقل الناظر فى أحوال البشر أن هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من ادناها الى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربى (ا) وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الاديان ، ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب ، واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

١ ــ دعوته الى الحق

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ، ولقى من اعداء انفسهم اشد ما يلقى حق من باطل : أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء ، واقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من عقبات لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له ، وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة .. غير أن تلك الدماء كانت

(ا) يقصد بالمحيط الغربى المحيط الاطلسى ، تخوم الصين

عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر ، يثبت الله بمشهدها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس اهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم ، فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الاطباء الحاذقين ..
« ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون »

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وماجاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته .. فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء ، والفقير للأغنياء ، ولا ناصر له الا انه الحق بين الاباطيل ، والرشد فى ظلمات الاضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة ، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها ، وكانت لهم ملوك وعزه وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره . ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ، ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزأوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر .. فغزاهم بنفسه ، وبعث اليهم البعوث فى حياته ، وجرى على سنته الائمة من صحابته ، طلبا للامن ، وابلاغا للدعوة ، فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الامم فى قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبتها وعددها

فظفروا منها بما هو معلوم ، وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها ، واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم واقامة شعائرهم آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم واموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءا قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة

٢ ـ مساعدة المغلوبين

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاية الى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر .. وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة . ولم يقنع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة ، يأخذون على أنفسهم العمل على نشره ، ويقفون مبعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين .. بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الاوربيون ضعة وضعفا

٣ ـ العدالة الاجتماعية

رفع الاسلام ما ثقل من الاتوات ، ورد الاموال المسلوبة الى اربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم

بلغ أمر المسلمين فيما بعد الا يقبل اسلام من دخل فيه الا بين يدى قاض شرعى ، باقرار من المسلم الجديد

انه أسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا (١) . .

ووصل الامرفى عهد بعض الخلفاء الامويين ان كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية . وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة . ولذلك امر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال (٢)

٤ ـ الحرية فى العمل والدين

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمان ما لبعض أهل الكتاب وغيرهم من المهارة فى كثير من الاعمال ، فاستخدموهم وصعدوا بهم الى اعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا

اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود اوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من امر المسلمين فى معاملتهم لمن اظلوهم بسيوفهم . . لم يفعلوا شيئا سوى انهم حملوا الى اولئك الاقوام كتاب الله وشريعته والقوا بذلك بين ايديهم ، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئا من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل اداؤه على من ضربت عليه . . فما الذى اقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام ، واقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى

---

(١) لقد كان هذا فى الدولة العثمانية والاقطار الخاضعة لسيادتها كمصر . وهذا لا تحتمه الشريعة الاسلامية

(٢) شكا اليه عامله بمصر ذلك فأجابه : « ان محمد (ص) بعث هاديا ولم يبعث جابيا » ، ويا له من جواب ممن اتاه الله الحكمة وفصل الخطاب . هامش « م.ر.ر »

دخلوا فيه أفواجا ، وبذلوا فى خدمته مالم يبذله العرب أنفسهم ؟ . .

٥ ـ تغلبه على رذائل الاخلاق

ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية ، وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال ، وسيره بسكانها على الجادة القويمة .. حقق لقراء الكتب الالهية السابقة ان ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء اقوامها من بعدها ؛ فلم يجد اهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين

٦ ـ رفعته للنفوس البشرية

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه ، فوجدوا لطفاورحمة ، وخيرا ونعمة ، لاعقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عملا تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق ، رأوا الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت ، يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ، ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى

حسنت النية وخلصت السريرة . فاذا نزت شـــهوة او غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة، وكملت الاوبة

تبدت لهم بساطة الدين عندما قرأوا القرآن الكريم ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم ، وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه ، فتراموا اليه خفافا من ثقل ماكانوا عليه

٧ ـ الغاؤه الامتيازات

كانت الامم تطلب عقلا فى دين فوافاها ، وتتطلع الى عدل فى ايمان فأتاها .. فما الذى يحجم بها عن المسارعه الى طلبتها ، والمبادرة الى رغيبتها ؟

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتيـــاز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها الا يقام وزن لشئون الادنين متى حالت دونها شهوات الاعلين .. فجاء دين يحدد الحقوق ، ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويســـوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة ان تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطـــر كبير .. وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا ، فلما عقد العزيمة على اخذه مع دفع اضعاف قيمته ، رفعت الشكوى الى الخليفة فورد امره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ماكان منه (١) .. عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل عـــلى

(١) كان فاتح مصر عمرو بن العاص يبنى مسجده المشهور بالقـاهرة ، وكان لسيدة قبطية منزل صـــغير بجوار البناء ، فأراد شراءه ليوسع جانبا من المســـجد ، فأبت فأراد الاستيلاء عليه كرها ، فشـــكته الى عمر بن الخطاب ، فبعث اليه يلومه ويأمره بالكف عنها

ابن ابى طالب أمام القاضى وهو من تعلم من هو ، ويستوقفه معه للتقاضى الى ان قضى الحق بينهما

٨ ـ المحبة روح الاسلام

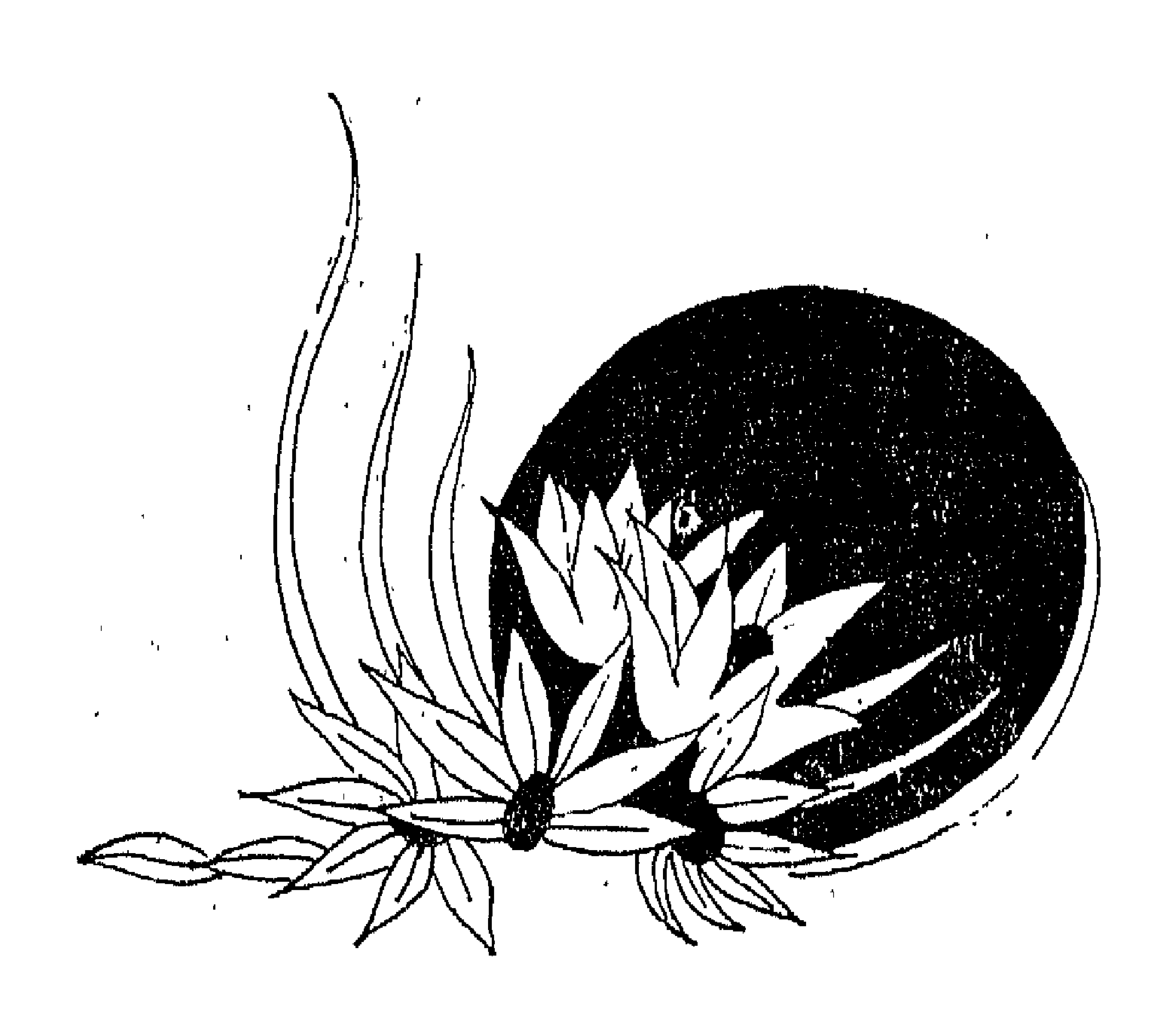
هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا اعداءه ، ورد اليه اهواءهم حتى صاروا انصاره واولياءه

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام ، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد ان يحرجهم الجار .. فهم كانوا يتعلمونها من سواهم ، ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرتحل ، فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما الفته من اللين والمياسره ، وعلى الرغم من غفلة المسلمين عن الاسلام ، وخذلانهم له ، وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم ، لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد ، خصوصا فى الصين وفى افريقيا .. ولم يخل زمن من ظهور جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه : لا سيف وراءها ، ولا داعى امامها ، وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه

ومن هذا تعلم ان سرعة انتشار الدين الاسلامى ، واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ، ويسر احكامه ، وعدالة شريعته . وبالجملة لان فطرة البشر تطلب دينا وترتاد منه ما هو امس بمصالحها ، واقرب الى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة .. ودين هذا شأنه

يجد الى القلوب منفذا ، والى العقول سبيلا ، وبدون حاجة الى دعاة ينفقون الامـــوال الكثيرة ، والاوقات الطويلة ، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لجذب النفوس اليه

هـذا كان حال الاســلام فى بساطته الاولى ، وطهارته التى انشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض اطراف الارض الى اليوم



لم ينتشر بالسيف

قال من لم يفهم ما قدمناه او لم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يطف على قلـــوب العالم بهـــذه السرعة الا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى ، يعرضـــــون القرآن عـلى المغلوب .. فان لم يقبله ، فصل السيف بينه وبين حياته، سبحانك هذا بهتان عظيم ! ..

ان ما قدمناه من معــاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواترا صحيحاً لا يقبل الريبة فى جملته ، وان وقع اختلاف فى تفصيله .. وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن انفسهم ، وكفا للعدوان عنهم ، ثم كان الفتح بعد ذلك من ضرورة الملك ،ولم يــكن من المسلمين مع غيرهم الا انهم جاوروهم واجاروهــم ، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام ، وكانت الحــــاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا (١) ، فقد عمل فى الرقاب

---

(١) طالما عمل الافرنج على نشر النصرانية بالاكراه ، وقهر القــوة العسكرية ، قبل الاسلام وبعده ،كما تدل على ذلك مذابح التاريخ فى أوربا وبلاد الشرق

للاكراه على الدين والالزام به .. مهددا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة ، مع كثرة الجيوش ووفرة المدد ، وبلوغ القوة اسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر فى شدته بعد مجيء الاسلام سبعة اجيال او يزيد .. فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته ، مع غيرة تفيض من الافئدة ،وفصاحة تتدفق عن الالسنة ، واموال تخلب ألباب المستضعفين ، ان فى ذلك لآيات للمستيقنين

جلت حكمة الله فى امر هذا الدين : سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية .. ابعد بلاد الله عن المدنية - فاض حتى شملها فجمع شملها ، فأحياها حياة شعبية دينية ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخراهل السماء فى رفعتها ، وتعلو اهل الارض بمدنيتها ، زلزل هديره على لينه ماكان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها ، قالوا كان لا يخلو من غلب « بالتحريك » قلنا تلك سنة الله فى الخلق .. لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغى ، قائمة فى هذا العالم الى ان يقضى الله قضاءه فيه . اذا ساق الله ربيعا الى ارض جدبة ليحيى ميتتها ، وينقع غلتها ، وينمى الخصب فيها ، افينقص من قدره ان اتى فى طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟ ..

سطع الاسلام على الديار التى بلغها اهله ، فلم يكن بين اهل تلك الديار وبينه الا ان يسمعوا كلام الله

ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين ازمانا ، فوقف وقفة القائد خذله الانصار ، وكاد يتزحزح الى ما وراءه .. لكن الله بالغ امره ، فانحدرت الى ديار المسلمين امم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل ، وكانوا وثنيين .. جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث اعقابهم أن اتخذوا الاسلام دينا .. وحملوه الى أقوامهم ، فعمهم منه بما عم غيرهم : جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم

تأثير الحضارة الاسلامية

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة (١) .. لم يبق ملك من ملوكه ، ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها .. واستمرت المنازعات والحروب بين الغربيين والشرقيين اكثر من مائتى (٢) سنة ، توافرت فيها للغربيين من الغيرة والحماية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند واعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا إلى ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين ، فانتصر الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها

ولم جاءوا وبما رجعوا ؟ .. ظفر رؤساء الدين فى

---

(١) راجع رد الاستاذ الامام فى مقالين على مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى كتاب « الاسلام دين العلم والمدنية » الذى نشرته دار الهلال . ففيه بيان واف وردود مفصلة عن كثير من التهم التى وجهها اعداء الاسلام اليه .

(٢) يشير الامام هنا الى الحروب الصليبية التى اثارتها أوربا منذ ثمانية قرون ، وهزمت فى كثير من معاركها وكان النصر فى النهاية للعرب والاسلام

الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على مايعتقدون لانفسهم الحـــق فى الاستيلاء عليه من البــلاد الاسلامية .. جاء من الملوك والامراء ، وذوى الثروة ، وعليه الناس ، جم غفير ، وجاء من دونهم من الطبقات ما قــدروه بالملايين . استقر المقام بكثير من هؤلاء فى ارض المســـلمين ، وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها .. تنظر فى احوال المجاورين ، وتلتقط من افكار المخالطين ، وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبينت ان المبالغات التى اطاشت الاحلام ، وجسمت الآلام ، لــم تصب مستقــر الحقيقة ، ثم وجدت حرية فى دين ، وعلما وشرعا مع كمال فى يقين ، وتعلمت ان حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ، ثم جمعت من الاداب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من حروبها ، هذا الى ماكسبه (١) الرحالة من اطراف الممالك الى بلاد الاندلس .. بمخالطة حكمائها وادبائها .. ثم عــادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، واخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلــم تتزايد بين الغربيين .. ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين ، والاخذ عــلى ايديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهــم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى بساطته ، وجاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليل ، بل ذهب بعض طوائف الاصـــلاح فى العقائد (٢) الى ما يتفق مع

---

(١) يشــر الى ما استفادته شعوب أوربا من الحضـــارة الاســـلامية وما نقلته من علوم العرب وفنونهم وفلســـفتهم مما لا يزال يدرس فى جامعات أوربا

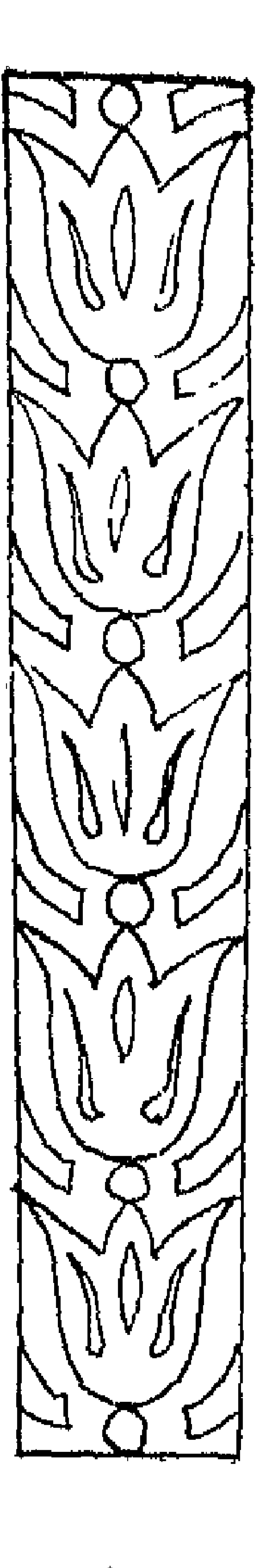
(٢) هم طائفة الموحدين واكثرهم من الانجليز والامريكان

عقيدة الاسلام الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لا غير

ثم اخذت امم اوربا تنطلق من اسرها ، وتصلح من شئونها ، حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت اصول المدنية الحاضرة ، التى تفاخر بها الاجيال المتأخرة ما سبقها من اهل الازمان الغابرة

هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .. جاء القوم ليبيدوا ، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا .. ظن الرؤساء ان فى اهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم .. فباءوا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم ، وما بيناه فى شأن الاسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من اهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه ، واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم ، والى الله عاقبة الامور

■■■■
■■■■



آراء الإمام في : العرب والمسلمين والإسلام

رأيه في العرب

كان الاستاذ الامام يرى أن العرب أجدر الشعوب بالاستقلال والحضارة الرشيدة بطبيعة بلادهم وشجاعتهم (١) ، وبما لهم من الوراثة والتاريخ واللغة الراقية ، وبوجود الروح الاعظم للاصلاح الاكمل بلغتهم وهو القرآن ، وما يبينه من سيرة الرسول الاعظم محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الترك سلبوهم كل شيء فتفرقوا وتعادوا واستحوذ عليهم الجهل .. فيجب ان يبدأوا بالعلم الصحيح وجمع الكلمة وكسب الثروة ، ويستعدوا لسنوح الفرصة ، ولا يجوز لهم بحال من الاحوال أن يخرجوا الان على الدولة العثمانية ، لما لذلك من سوء العاقبة ، وذكر لى واقعة حال فى هذا الموضوع أدلى فيها بحجته على هذا الامر

قال : علمت أن مستشرقا بريطانيا أحب العرب ، وساح فى بلادهم ، واختبر حالهم .. فظهر له ان اخلاقهم

---

(١) ما نرويه فى هذا الفصل عن مريده وتلميذه السيد / محمد رشيد رضا ، اقتبسناه من الجزء الاول من كتابه « تاريخ الاستاذ الامام » مع التلخيص

فى بلاد نجد شريفة لم تفسد ، واستعدادهم عظيم ، فتوجهت رغبته الى السعى لمساعدتهم على تأليف دولة عزيزة تجدد الحضارة العربية ، وأراد جمع المال الذى يمهد السبيل ويهيىء الوسائل لذلك ..

واستشارنى فى هذا الامر فقلت له : ان العرب أهل لذلك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه .. وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم .. فاذا شعروا بذلك، أو رأوا بوادره قاتلوهم .. حتى اذا وهنت قوة الفريقين ، وثبت دول أوربا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين او على اضعفهما .. وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام ، فتكون العاقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته » . فقنع الرجل وترك ما كان عزم عليه من السعى ..

قال السيد رشيد رضا : « لم يذكر لى اسم هذا الرجل . ولما رأيت بعد ذلك صديقه مستر بلنت ، وحادثته وحادثت زوجته علمت أنه هو الذى كان فكر فى ذلك وعزم عليه .. ثم التقيت بالمرحوم محمود شوكت باشا فى الآستانة بعد الدستور(١) ، وتكلمت معه فى المسألة العربية .. رأيت رأيه قريبا من رأى الاستاذ الامام من ناحية مسالمة الدولة .. وقال : نحن العرب أقوى من الترك استعدادا لتحصيل العلوم والفنون ، ولكسب المال بالزراعة والتجارة والصناعة ، ونحن اكثر عددا من الترك فى الدولة اذا سمحنا باحصاء النفوس فى جميع بلادنا ، ولكن الترك متفقون ونحن مختلفون ، وقوة الدولة العسكرية والمالية فى ايديهم .. فمعاداتنا لهم خطر علينا ، فيجب ان

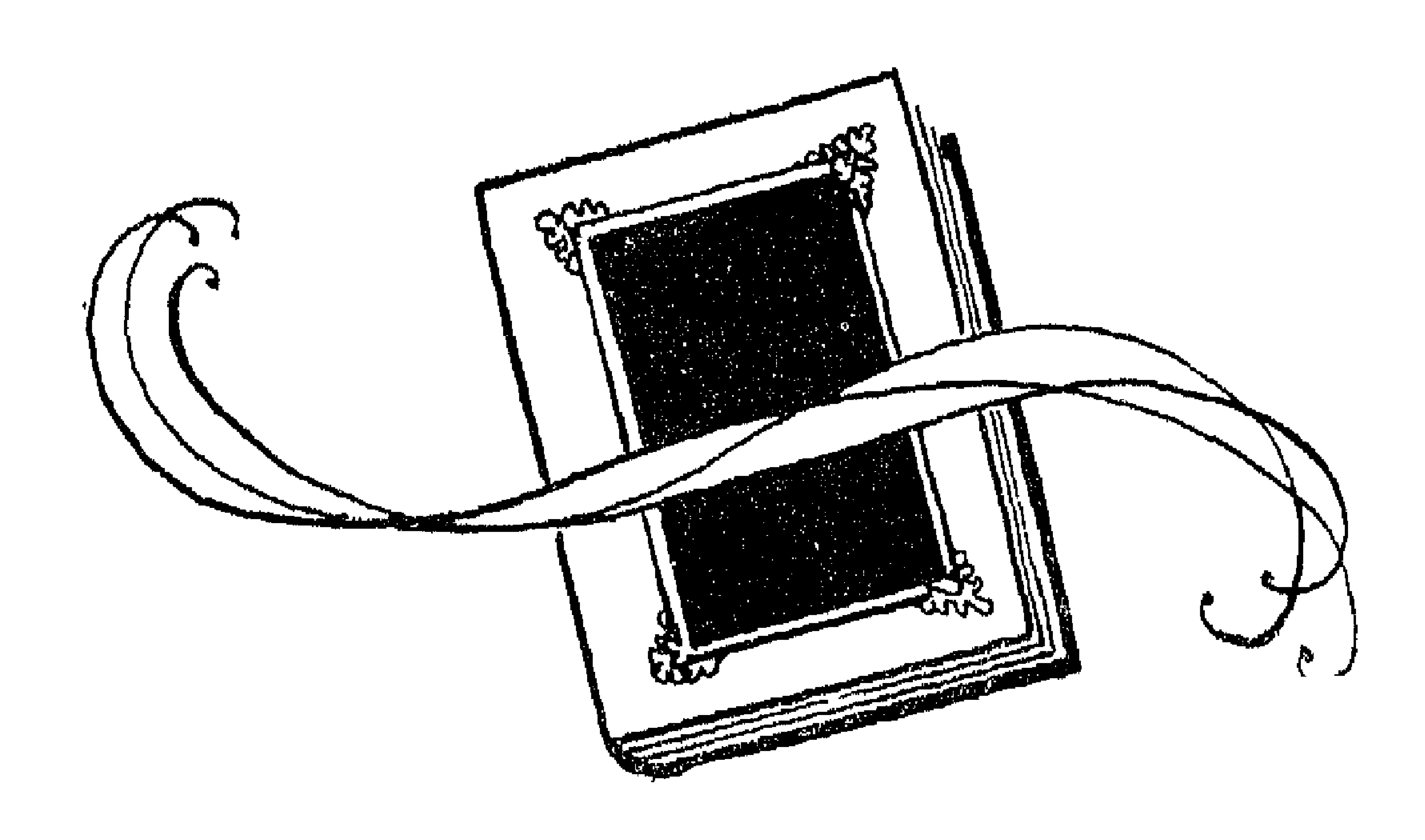
---

(١) الدستور العثمانى الذى صدر سنة ١٩٠٨ ، اما محمود شوكت باشا فهو أحد القواد العرب فى الدولة العثمانية

نقوى أنفسنا بالدولة فى ظل الدستور ، فنكثر من ادخال أولادنا فى المدارس وفى الخدمة العسكرية ، وتكون عاقبة ذلك أن تكون أغلبية المبعوثان (النواب) منا ، وأن يكون زمام الدولة فى أيدينا

ولكن الاتحاديين جعلوا الدستور صوريا ، وتوسلوا بقبضهم على زمام السلطة الى تقوية العصبية التركية الطورانية ، والقضاء على سائر الشعوب العثمانية ، وقتلوا محمود شوكت باشا منقذهم من الاستبداد الحميدى ، وعزموا على قتل كل زعيم عربى ، فقضى الله عليهم وعلى هذه الدولة بسوء سياستهم ، ولم يبق للترك الا الاناضول وبعض الروملى منها

واما رأى الاستاذ الامام وهو الذى جرينا على الدعوة إليه ، فهو أن يعنى العرب بترقية أنفسهم بأنفسهم من غير معاداة ، مع انتظار الفرص للاستقلال مع اتقاء خطر الاجانب وصيانة الاسلام والمسلمين



رأيه فى الشعب المصرى

وقد كان يرى أن أطفال المصريين إذكى من أطفال سائر الشعوب ، وأن شبانهم من انشط الشبان وامضاهم عزما وهمة واقداما ، ولكن المصرى يدب فيه الهرم المعنوى منذ استكمال الخامسة والعشرين ، فيخلد الى الراحة والتمتع باللذات ، وتقعد به همته عن الجهاد والكدح فى سبيل المصلحة العامة

وقال مرة ـ وهو فى اشد الغضب والامتعاض من حادثة المحاكم الشرعية ـ عندما اقترحت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية عضوين فى المحكمة الشرعية العليا : والله لو أن فى مصر مائة رجل لما استطاع الانجليز إن يقيموا فيها ، أو لما استطاعوا أن يعملوا عملا اذا أقاموا

ان فى مصر مئات أو آلاف من الرجال يفهمون كل شيء، ولا ينقصهم العلم بما يجب للبلاد ، ولكنهم فاقدون الارادة وقوة العزيمة ، فلا تكاد تجد عشرة منهم يتحلون بهما ، وهما الصفتان اللتان لا ينفع بدونهما علم ولا يقوم عمل ..

أرأيت هذا الرجل ـ مصطفى باشا فهمى (١) ـ الذى

---

(١) كان من اعلام مصر وكان رئيسا للوزارة ، ووزيرا عدة مرات فى عهد كل من الخديو توفيق وعباس الثانى

يصفه الوطنيون بالخيانة للبلاد ؟ انه ذكى نبيه ويحب خير البلاد ومصلحتها ، ولكنه ضعيف الارادة بل فاقدها .. ولولا ذلك لأمكنه بما نال من ثقة سلطة الاحتلال به ان ينفع البلاد نفعا عظيما ، ويدفع عنها أذى كثيرا ، ولكنه لا يدرى هذا

ان الشعب المصرى لا يفنى ولا يندمج فى غيره من الشعوب التى تغلبه على حكومته ، وقد يندمج الشعب المتغلب عليه فيه .. ذلك بأن ذل الغلب وفقد الاستقلال لا يضعف حيويته ويقلل نسله كما وقع لشعوب أخرى ، بل يعيش فى كل حال ، يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، ويتزوج وينسل ، ويحفظ مشخصاته القومية

والحكومات أعراض تزول ، وهو لا يزول .. ولكننى صرت فى ريب من بقاء هذه المزية فيه بما علمت من سريان جريمة السكر من الامصار الى الارياف ، وابتلاء الفلاحين بهذه الاشربة الكحولية السامة وفشو الزنا فيهم ، وكل منهما يعطل الجهاز التناسلى أو يضعفه .. فاذا لم يتدارك هذا الخطر بالتربية الدينية والتعليم المشتمل على القواعد الصحية ، وتغذية ذلك باصلاح خطابة المساجد وبث الوعاظ والمرشدين فيها ، فان الشعب المصرى نفسه معرض لخطر الانحلال والزوال

وقد روى السيد رشيد رضا أن إحمد فتحى باشا زغلول (١) كان يتحدث معه مرة فى ضعف رجال الحكومة المصرية ، وفتور هممهم حتى فى أعمالهم الرسمية ، فذكر أفرادا من رؤسائهم قال انهم تعلموا أحسن التعليم ، وحصلوا أكمل التحصيل ، وكان لهم ما يحمد من الهمة والشجاعة الادبية فى شبابهم ، وتجدهم الان كالتماثيل فى

---

(١) كان وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) ومن خيرة العلماء .. وكان من تلامذة الاستاذ الامام

دواوينهم ، لولا انهم يحركون ايديهم لتوقيع بعض الاوراق او لطرد الذباب

فقال السيد رشيد رضا : « ما كان يقول أستاذنا فى ذلك » ـ وذكرت له كلمته ـ فاذا هو قد سمعها منه اذ قال : « أو كلما كان يقول الاستاذ شيئا كنا نفهم كل مراده منه ؟ . كلا اننا كنا نفهم مدلول الفاظه اللغوية ، وأما فحواها وتأويلها فى الخارج فربما لا نفهمه الا بعد التجارب عدة سنين »

التربية والتعليم

أما رأيه فى التعليم والتربية فخلاصته (١) أن يكون المراد منهما تجديد تكوين الأمة الذى بطل ونحل منذ قرون كثيرة ، بحيث تكون الأمة عزيزة متحدة متعاونة متكافلة يصدق عليها تمثيل النبى «صلعم» للمؤمنين بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وبالجسد الواحد اذا تألم عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر

هذه هى التربية ، وهذا هو التعليم ، اللذان كان محمد عبده يجاهد فى سبيلهما ، ويدعو الى مسالمة الحكام المستبدين والمتغلبين لأجل التمكن منهما ، ويعلم أن استقلال الامة الصحيح لا يكون ، أو لا يتم ويثبت الا بهما . وكان يقول : « يا ويح الرجل الذى ليس له أمة » وكان يمدح القبط لتضامنهم ووحدتهم والتعاون والعمل لمصلحة طائفتهم ، ومعرفة قيمة رجالهم ، وقد كانوا يلجأون فى جميع أمورهم ومشكلاتهم الى « بطرس باشا غالى » من الاسكندرية الى حلفا والسودان

---

(١) يراجع رأيه بالتفصيل فى خطبه باحتفالات مدارس الجمعية الخيرية (ص ٧٣٠ ـ ٧٥٢) من الجزء الاول من « تاريخ الاستاذ الامام » وفى لائحة نظام التربية والتعليم بالجزء الثانى (ص ٥٣٣)

رأيه فى الوطنية والدين

كان يرى أن الوطنية التى هى عبارة عن تعاون جميع أهل الوطن الواحد المختلفى الاديان على كل ما فيه عمرانه واصلاح حكومته ، لا يعارض الدين الاسلامى فى شىء ، كما يثبته شرعه فى العدل والمساواة ويشهد له تاريخه كما بينه فى كتاب « الاسلام والنصرانية » (١) وقد كان السيد جمال الدين يرشد تلاميذه ومريديه وحزبه السياسى الى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقى للتعاون على الاعمال الوطنية السياسية والعمرانية .. وكان حزبه مؤلفا من أذكياء الملل المختلفة ، وكان مع هذا يدعو المسلمين الى الاصلاح الاسلامى الخاص بهم فى فهم العلم والدين ، وشد أواصر الاخوة الاسلامية مع جميع المسلمين على إختلاف مذاهبهم .. ولم نر أحدا من الناس الذين تكلموا فى شئونه والذين كتبوا عنه فى مدة حياته ، ولا بعد مماته ، اتهمه بالتفريق بين أهل الوطن الواحد ، ولا بين أهل المذاهب الاسلامية ، بل كان داعية اجتماع واتحاد وطنى فى كل وطن ــ وشرقى عام فى دعوة الشرق

(١) نشر هذا الكتاب بعد تحقيقه والزيادة فيه باسم « الاسلام دين العلم والمدنية .. » وهو من مطبوعات « دار الهلال »

كله وارشاده الى تحرير شعوبه من سيطرة الغرب - واتحاد اسلامى فى الاصلاح الدينى ونبذ الشقاق فيه

وكذلك كان الاستاذ الامام كما علمنا من سيرته فى مصر وفى سورية .. قد كان من التآلف بين جميع الطوائف فى بيروت على عهده ما لم يعهد له نظير كما تقدم ، ولم يصدر عنه قول ولا فعل فى مقاومة الاقباط أو دعوة المسلمين الى ذلك ، وانما كان يحب أن يجتهد كل فريق بنفسه فى ترقية مصالحهم الملية ويتعاون الجميع على المصالح المشتركة الوطنية

وقد كان يعلم ان بطرس باشا غالى هو الذى وضع فى وزارة الحقانية مشروع المحاكم الشرعية تمهيدا لالغائها وادماج عملها فى عمل المحاكم الاهلية ، وأخبرنى بذلك بصفة خاصة كما كان يخبرنى بجميع الاسرار ، ولكن معاملته الشخصية مع بطرس باشا لم تتغير

وقد كان بعض كتاب المسلمين طعنوا فى بطرس باشا ، واتهموه بمحاباة القبط فى الوظائف وغيرها اذ كان وكيل وزارة الحقانية

وكان الاستاذ الامام فى ذلك الوقت سنة «١٣٠٥ هـ» فى بيروت ، فلما رأى هذا الشقاق الوطنى فى الجرائد المصرية كتب فى تلافيه مقالة فى جريدة ثمرات الفنون عنوانها « مصر والمحاكم الاهلية » وكتب الى بعض مريديه بمصر « سعد زغلول » ان يسعى الى نشرها فى بعض الجرائد الاسلامية فنشرها

رأيه فى اللغة والتأليف

كان الاستاذ الامام يرى ان اللغة العربية فى حاجة الى اصلاح آخر فوق اصلاح التعليم لفنونها وادابها ، واتقان الكتابة والخطابة فيها ، وهو مافعله الفرنسيون وغيرهم من شعوب العلم فى أوربا من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية ، وتاريخ تطور اللغة ، وما دخل فيهنا من اصطلاح ومعرب وغيره ، والمعاجم العلمية ، وفلسفة البيان والانتقاد ، وغير ذلك ، وقد قال لى ان هذا النوع من الاصلاح لا يرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيين فيه الا باشتغال جدى مدة خمسين سنة

واما كتبنا العربية ، فقد كان كثير الشكوى والتبرم من سوء أسلوبها وضعف لغتها ، وكان يفضل كتب المتقدمين على كتب المتأخرين ، ويقول مع ذلك أن فن التأليف والتصنيف قد بلغ الغاية من الارتقاء عندهم ، واننا فى اشد الحاجة الى حذوهم فيه

واذا أردنا ان نكتب فى تاريخ علم الكلام مثلا ، فلا يوجد فى تواريخنا مادة تفى بالغرض .. يذكرون أن واصل بن عطاء اول من تكلم فى العقائد على مذهب المعتزلة واعتزل مجلس الحسن البصرى ، لكن ما سبب

ذلك ؟ من أين جاءه هذا الفكر الجديد ؟ وكيف انتشر هذا المذهب ؟ وما الذى حدا بالشيخ أبى الحسن الاشعرى للقول بأن الوجود عين الموجود ؟ .. ومتى دخلت الفلسفة فى كتب العقائد ؟ وماذا كان غرض العلماء فى ادخال الفلسفة على العقول مع العقائد فى وقت واحد ؟

كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريخنا ، ويمكننا ان نعرف كثيرا من شئون الاسلام وتاريخه من الكتب الافرنجية فان فيها مالا نجده فى كتبنا

وقال فى وقت آخر ان العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الاسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر ، الا اذا كان متقنا للغة (١) من لغات العلم الاوربية تمكنه من الاطلاع على كتب أهلها فى الاسلام وأهله ، من مدح وذم وغير ذلك من العلوم

رايه فى الصوفية

قال الاستاذ الامام انه لم يوجد فى أمة من الامم من يضاهى الصوفية فى علم الاخلاق وتربية النفوس ، وسبب ما ألم بهذه الطائفة تحامل الفقهاء عليها ، واخذ الامراء بقول الفقهاء فيها .. فأولئك يكفرون ، وهؤلاء يعذبون ويقتلون ، حتى انه قتل فى هذه البلد «القاهرة» فى يوم واحد خمسمائة صوفى .. وهذا هو سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم أن ظهروا ، ولجوئهم الى الاختفاء ، وكلامهم فى الطريقة ، وما يعمدون اليه فى التعبير بالرمز والاشارة ، ثم قام الناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم

---

(١) لقد تحقق ما كان يهدف اليه الاستاذ الامام ووجد من العلماء والمفكرين فى السنين الاخيرة من خدم الاسلام أجل الخدمات بمؤلفاتهم القيمة كالاستاذ عباس العقاد والدكتور محمد حسين هيكل ومحمد فريد وجدى واحمد أمين وغيرهم

مما كانوا مضطرين الى الظهور به ، وهـــو ليس من التصوف ، ولم يعرفوا من امورهم الصحيحة الا قليلا .. وهكذا كان البكد عن التصوف رويدا رويـــدا حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضا تاما الا مالا نعلم

قال : الفقهاء لبعدهم عن التصوف « الذى هو الدين » جهلـــوا سياسة وقتهم وحاله ، ولجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الاحكام الشرعية .. واذا عرفوا ان الحكم كذا ، لايعرفون كيف يحملون الامـراء والحكام يلتزمون هذا الحكم وينفذونه ؟ ولهــــذا ضـــاع الدين والسياسة

احتقرهم الامراء والسلاطين فى انفسهم واستخدموهم لاغراضـــهم التى تؤيد ســلطتهم ونفــوذهم ، وحملوهم على الفتـــوى بمـــا يؤيد رغبـــاتهم ـــ ولا يوافـــق الشرع ـــ فدققـــوا النظر واستنبطوا لهم ما يطلبـــون ، وافتوهم بما يشاؤون . وقررت فتاويهم فى كتب الفقه على انها أحكام شرعية « اى ان هذا هو حكم الله فى هذه المسألة » !

وقد قال له السيد رشيد رضا : ان للصوفية كلاما غير معقول وما هو مخالف لظاهر الشرع (أو ظاهره للشرع) وهو الكلام فيما وراء التربية وتهذيب الاخلاق الذى انفتح به الباب لتأويلات الباطنية ، الذين يشبه كلامهم فى كثير من آيات القرآن كلام الصوفية ، ولكون اهل الســـنة صاروا يسلمون للصوفية أقوالهم صارت الصوفية وصلة بيننا وبين الباطنية

فقال الشيخ محمد عبده : نعم صدر عنهم كلام ما كان ينبغى أن يظهر ولا أن يكتب « ومنه ما يوهم الحلول » ولو كنت سلطانا لضربت عنق من يقول به . وانا لا انكر

ان لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا « بل ربما حصل لى شىء من ذلك وقتا ما » لكن هذا خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ، ولا أن يكتبه ويدونه علما .. ان هذا الذوق يحصل للانسان فى حالة غير طبيعية ، وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا ينبغى أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية

وكل ما إنا فيه من نعمة فى دينى أحمد الله تعالى فسببها التصوف الصحيح الخالى من البدع والخرافات المرغب فى العلوم (١)

وقد فصل الاستاذ هذه المسألة ـ التنازع بين الفقهاء والصوفية وما انتهى اليه أمر هؤلاء ـ فى تفسير : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » وقد حقق ما كان عليه الصوفية الاولون من الاصلاح وحسن النية فيما أخطأوا ، وافتتان الناس بهم بعد فساد أمرهم حتى اتخذوهم أندادا لله يطلبون منهم ما لا يطلب الا من الله تعالى (٢)

(١) يراجع الفصل الثالث فى تربية الامام الروحية والصوفية من كتاب تاريخ الاستاذ الامام صفحة ١٠٦ للشيخ رشيد رضا .

(٢) يرجع الى هذا التفصيل فى الجزء الثانى من تفسير المنار

رائيه فى المسلمين

لا ارى حاجة الى ذكر رايه فى المسلمين واعراضهم عن الاسلام وبعدهم عنه واعراضهم عن هدايته ، وما ابتلاهم الله به من سلب الملك ، والبسهم من سرابيل الذل ، جزاء لهم ، لعلهم يرجعون .. فان ما كتبه فى ذلك « فى رسالة التوحيد » مختصرا ، وفى كتاب « الاسلام والنصرانية (١) » مبسوطا بعض البسط ، يكفى لتوضيح هذا الرأى .. وقد كان له فى مجالسه الخاصة من التصريحات فى ذلك مالا نظير ، فيما كتبه وما كان يقوله فى درس تفسير القرآن

وقد صرح مرارا بان انتقام الله تعالى من المسلمين لاعراضهم عن كتابه ، وعن هدى رسوله اتباعا لاهوائهم وشهواتهم ، وما فتنهم به ساداتهم وامراؤهم ، مما يبلغ حده ، بدليل ان هذه النقم لا تزال تتجدد وتتعدد . وكان يقول : « ان المسلمين مصابون بالعقم لا يموت أحد من أصحاب المزايا الكبيرة والاعمال النافعة فيهم ويخلفه مثله ، على

(١) هذا الكتاب نشرته دارالهلال باسم « الاسلام دين العلم والمدنية » بعد اضافة فصول اليه بقلم الامام

خلاف ما نرى عليه الامم الحية » وكان يذكر رجالا كثيرين من أصحاب هذه المزايا الكبيرة فى مصر وسورية : كالشيخ محمد المهدى العباسى ، والشيخ على الليثى فى مصر ، والامير عبد القادر الجزائرى ، والسيد محمود حمزة مفتى الشام وغيرهم ، لا يوجد أحد مثلهم ولا من يقرب منهم : وقد ظن بعض خواصه انه يقول هذا فى المصريين لانه ضرب لهم الامثال منهم ، ولكنه ذكر الامثال من غيرهم أيضا

على انه قال أخيرا ما يدل على رجائه فى نهضة المسلمين ، وقد عبر عنه أولا بمثل يفيد الشك اذ قال : « اننى أرى فى هذه الشجرة الجرداء ورقات خضراء ، فلا أدرى أهى من بقايا الحياة الاولى أم هى بدء حياة جديدة »

وأما رجاؤه فى مستقبل الاسلام فى الجملة — دون شعوبه الحاضرة — فكان رجاء كاملا لانه متصل برجائه فى الاسلام نفسه ، وهذا الرجاء لم ينقض قط .. وانما كان شكه فى اول شعب يحيى الاسلام ، هل هو من المنتمين اليه ، أم من الذين سيهتدون به ؟



رأيه في الاسلام

كان يجزم بأن الاسلام ـ اسلام القرآن والرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم فى سيرته وسنته وسيرة خلفائه الراشدين وعلماء الصحابة (رض) ـ هو دين الفطرة ودين المستقبل ، وأن أمم الحضارة فى الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرهم الى طلب المخرج منها فلا يجدونه الا فى الاسلام .. اسلام القرآن والسنة ، لا اسلام المتكلمين والفقهاء .. وقد صرح بهذا فى مواضع كثيرة

رأيه فى المذاهب الاربعة

كان رأية في المذاهب وائمتهـا نفس مايدل عليه هذان اللفظان ، فالمذاهب هى طرق الاستدلال التى سار عليها أولئك العلماء المستقلون فى فهم الكتاب والسنة وقواعدهما ، واستنباط الاحكام من النصوص بمقتضى معانى اللغة العربية الفصحى فى مفرداتها وجملها وأساليبها وتلك القواعد

وكان يجل جميع الائمة المجتهدين ، ويرشد طلاب العلم الى اتباعهم فى اعتصامهم بالكتاب والسنة اعتقادا

وتخلقا وأدبا وعملا واستدلالا ، كما صرح بذلك فى خطبته عند ختام درس المنطق (١) ويقول انه لا معنى لاتباع المذهب الا هذا .. وأما جعل كلام الامام المجتهد دينا يتعبد به ، فهو ينافى دين الاسلام نفسه ، ويدخل فاعلوه فيما حذر الله عنه من فعل اهل الكتاب باتباع رؤسائهم فيما يوجبون عليهم ، ويحلون لهم ويحرمون عليهم فى قوله : « واتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله »

وكان يرى ان امور الدين قسمان : احكام قطعية يجب على كل مسلم معرفتها والتدين بها ، وهى كلها منصوصة فى كتاب الله تعالى ومبينة بالتفصيل فى سنة رسوله ، وتناقلها المسلمون بالعمل .. فهى قطعية مجمع عليها لا مجال فيها لاجتهاد المجتهدين ، فيأتى فيها تقليد المقلدين

والثانى احكام غير ثابتة بنص قطعى ولا اجماع فهى محل الاجتهاد ، والتحقيق انها لا تكون فى فرض احكام عامة فى العبادات ولا فى المحرمات الدينية بل فيما يشتبه على المكلف من جزئياتها او طرق العمل بها وفى احكام المعاملات . وهذه يجب على المشتغلين بالعلم من تدريس وتاليف وافتاء ، وبالقضاء بين الناس ، ان يبحثوا عن ادلتها ، مهتدين بسيرة الائمة ومذاهبهم فيها ، ويعملوا بما ظهر لهم رجحانه منها

وأما العوام فيرجعون فيما يعرض لهم ويشتبه عليهم منها الى من يثقون بعلمه وتقواه ، فيسألونه عن حكم الله

---

(١) ترى هذا التصريح فى صفحة ٧٦٢ من الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام

فيها ان كان فيها نص عنهما ؛ او عن اجتهاده وما يطمئن اليه قلبه منها

وهـذا معنى قول علماء السلف وائمتهم : العامى لا مذهب له وانما مذهبه مذهب مفتيه » والمدار فى اساس هذا الموضوع على اصـل الامام مالك فى « ان مـدار العبادات على النصوص ووجوب الاخذ بظواهرها ، ومدار احكام المعاملات فى غير المنصوص على القواعد واعتبـار المصالح العامة »

وكان الاستاذ الشيخ محمد عبـده مالكى المذهب فى نشاته الاولى ، تفقه بمذهب مالك ، ثم قرأ فقه الحنفية فى الازهر وامتحن فيه امتحان شهادة العالمية ، واصـل مذهب الحنفية ان فرائض الدين والمحـرمات الدينية لاتثبت الا بنصوص الكتاب والسنة القطعية .. بل نقل الشافعى فى « كتاب الام » عن ابى يوسف ان مشـايخه وسائر علماء السلف ، لا يقولون فى شىء انه حرام الا ما كان بينا فى كتاب الله تعالى بلا تفسير . ونقل شـيخ الاسلام ابن تيمية عن السلف انهم لم يكونوا يوجبون ولا يحرمون شيئا الا بنص قطعى ، وان الاحكام العامة للأمة لاتثبت الا بنقل الامة المتواتر بالعمل

رأيه فى الفقه والفقهاء

ضيع المسلمون دينهم ، واشتغلوا بالالفاظ وخدمتها ، وتركوا كل ما فيه من المحـاسن والفضـائل ، ولم يبق عندهم شىء .. هذه الصلاة التى يصلونها لا ينظر الله اليها ولايقبل منها ركعة واحدة ، حركات كحركات القرود ، والفاظ لا يعقلون لها معنى ، لا يخطر ببال احد منهم انه يخاطب الله تعالى ويناجيه بكلامه ، ويسبح بحمـده ،

ويعترف بربوبيته ، ويطلب منه الهداية والمعونة دون غيره

ومن العجيب ان فقهاء المذاهب الاربعة — وربما غيرهم ايضا — قالوا ان الصلاة بلا حضور ولا خشوع يحصل بها اداء الفرض ، ويسقط الطلب ، ماهذا الكلام ؟ انه لباطل ، كل آية تذكر الصلاة فى القرآن تبطله .. قالوا النية فى الصلاة ان يقصد الانسان فعل هذه الصلاة دون غيرها . وبالغ بعضهم فقال : لابد من تصور جميع اعمالها عند التكبير ، وفسروا قوله صلى الله عليه وسلم « انما الاعمال بالنيات » بهذا .. انما قصد الفعل عند مباشرته طبيعى ، فاننى اذا قمت امشى لا اقصد بمشى القعود ، وحاشا لله أن تفرض الشريعة الحكيمة هذا وتجعل عليه مدار الاعمال والعبادات ، ولكن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة

ان اليهود لم يحرفوا التوراة أكثر مما حرفوا .. المراد بالنية فى الحديث قصد المرء وغرضه من فعله ، وهو اما وجه الله وابتغاء مرضاته — وهو النية الصحيحة — واما غرض آخر كالرياء

ان صلاة المستر براون الانجليزى عندى خير من صلاتهم ، وهو رجل انجليزى رأى ترجمة القرآن فأسلم (١) وهو يحملها ويقرأ فيها دائما عند الفراغ ، ويصلى بحسب مايفهم من القرآن ، ويستقبل القبلة كلما حرره

---

(١) كان مستر براون ضابطا بحريا ولما رأى الكلام عن البحر وظلماته وأمواجه واهوالها فى ترجمة القرآن سأل احد الهنود من المسلمين هل ركب محمد البحر وسافر فيه ؟ قال : لا ان مافى القرآن عن البحر لا يمكن أن يكون عن خبير مخبر من الناس . فكان هذا سبب عنايته بقراءة الترجمة واهتدائه للاسلام

بحسب معرفته بعلم الفلك ، ويركع ويسجد ، فهذا وجد عنده روح الصلاة وكان لا يعلم الاوقات وعدد الركعات .. قال لى : اننى اصلى عند الفراغ بحرارة وخشوع

وسألنى عن صلاته فقلت له : أنا أصلى ، فصل معى. وعلمته كيفية الصلاة فى زمن قصير بالعمل ، فتمت له الصلاة بصورتها وروحها ، وقال لى مرة انه يعجب لكون المسلمين والمؤمنين بالقرآن لا يسبقون كل الامم ويكونون خير الناس

وقد سألنى : من اكثر الناس جنـــاية على القرآن ؟ فقلت : ذووه وأصحابه ، فسر بجوابى هذا كثيرا . أوتى كل هذا الأعجاب بالقرآن والاعتبار والاهتداء به مع ان الترجمة الانجليزية له بعيدة عن الصواب فى مواضع كثيرة

ثم قال : وقد جعلوا « اى الفقهاء » كتبهم هذه عـلى علاتها اساس الدين ، ولم يخجلوا

من قولهم : ان العمل يجب بما فيها وان عارض الكتاب والسنة ، فانصرفت الاذهان عن القرآن والحـديث ، وانحصرت انظارهم فى كتب الفقهاء على ما فيهـــا من الخلاف فى الآراء والركاكة

ثم قال : اذا رجعنا الى كتب القرون المتوسطة كالزيلعى، نكون قد خطونا خطوة لاصلاح الكتب والفقه ، ومادمنـا مقيدين بعبارات هذه الكتب المتداولة ولا نعرف الدين والعلم الا منها فلا نزداد الا جهـلا . هـذا الشوكانى لما كسر قيود التقليد الاعمى حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفقيها ، وقال ان حالة الفقهاء هذه هى التى ضيعت الدين ، وشرح هذه المسألة ببيان حالة العوام (وهم الامة) وحالة الحكم امام الفقه قال :

ان العامى الذى يحتاج الى الكسب والعمل لا متسع

عنده لصرف سنين طويلة فى تعلم احكام الطهارة وسائر العبادات فى الازهر من هذه الكتب الطويلة الصعبة ، وأى حاجة الى هذه الابحاث الطويلة ، والتدقيقات فى مسائل المياه والطهارة والصلاة ، قال صلى الله عليه وسلم « صلوا كما رأيتمونى اصلى » .. وشرح صلاته ووضوئه يمكن بيانه فى ورقات قليلة .. وكل ماء يشرب وينقى به البدن يطهر به

من اين جاءهم ان ماء الزهر والورد لا يصلح الوضوء به ؟ وهل فيه زيادة عن الماء الا شيء من الطيب الذى هو من مقاصد الشريعة ؟ وماء الكولونيا احسن شيء للوضوء فانه يمنع آثار المرض أيضا ، وكان الشيخ الانبابى يقول بنجاسته لان فيه « سبيرتو » وهل يوجد شيء مطهر « كالسبيرتو » ؟ .. والاستدلال على نجاسته باسكاره ضعيف (١) فانه لا يمكن شربه لانه محرق للجوف .. كذلك محلول السليمانى من احسن المنقيات والمطهرات « الطبية » وشربه قاتل.

ثم ان الناس تحدث لهم باختلاف الزمان امور ووقائع لم ينص عليها فى هذه الكتب ، فهل نوقف سير العالم لاجل كتبهم ؟ .. هذا لا يستطاع ، ولذلك اضطر العوام والحكام الى ترك الاحكام الشرعية ولجأوا الى غيرها

ان اهل بخارى جوزوا الربا للضرورة .. والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على اغنياء البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص ، فاضطر الناس الى « الاستدانة

---

(١) ظاهر هذا أن الاستاذ يوافق الفقهاء على القول بنجاسة المسكرات ، ولكنني لما أفتيت فى المنار بطهارة عينها اعجبه ذلك وأقره (هامش رشيد رضا).

من الاجانب بأرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للاجانب ، والفقهاء هم المسئولون عند الله تعالى عن هذا ، وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة لانه كان يجب عليهم ان يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبقوا عليه الاحكام بصورة يمكن للناس اتباعها — اى كأحكام الضرورات — لا انهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ، ويتركون لاجلها كل شيء

« يقرأون الاصول ولا يخطر ببال احد منهم ان يرجع فرعا من هذه الكتب الى أصله ، أو يبحث عن دليله .. بل لم يخجلوا أن يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر فى الكتاب والسنة ، دانوا لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها الذى تشتت به شمل الامة ، ويكتفون بقول « وكلهم من رسول الله ملتمس »

« كان ينبغى أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذى ينبغى ان يكون عليه العمل ، واذا كان بعض المسائل رجح لاسباب خاصة بمكان او زمان ينبغى لهم التنبيه على ذلك ، وان هذا الحكم ليس عاما وانما سببه كذا ، لا انهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع فى كل زمان ومكان » !!

فهرس

صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL

سيراليـــون : Messers Allie Mustapha & Sons
P O Box 410
Freetown Sierra Leone

ســـنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Sa mail
Almaktab Attijari Asshorqi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S. E. 26
ENGLAND

نيجـــيريا : Mr. Mohamed Said Mansour,
Atlas Library Company,
126, Nnamdi Azikiwe Street
LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

صادفت الكتب الاربعة التى سبق أن نشرت فى سلسلة ((كتاب الهلال)) .. من تراث الامام الشيخ محمدعبده رواجا وتقديرا من القراء حفزنا على مواصلة نشر هذا التراث الذى حرص رئيس التحرير على تحقيقه والتعليق عليه والتقديم له ببحوث ضافية تمهد لاستيعاب موضوع الكتاب وتوضح منهج الاستاذ الامام فى تناوله ، وتكشف عن نواح ما يزال يجهلها الكثيرون ..

ويضم هذا الكتاب نخبة من موضوعات الحيوية التى تدور حول الاسلام وشئون المسلمين ، وان كانت تهم غير المسلمين .. فهى تتناول شئون المجتمع الانسانى وتعالج مسائل عامة لا يقتصر التفكير فيها على دين من الاديان أو مذهب من المذاهب ..